

مسألة المحرم
سلك الأستاذ الدكتور
ياسر زكي بطرس

الأعمال الدينية



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. بيارد دودج

الأزهر

ترجمة:

د. حسين فوزي النجار

في ألف عام

مهرجان القراءة للجميع



الأزهر في ألف عام

الأزهر في ألف عام

تأليف : ييارد دودج

ترجمة : د. حسين فوزي النجار

مسلة الكتاب
مسلك الأستاذ الدكتور
رسمي زكي بلمرس



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الأزهر في ألف عام

تأليف: بيارد دودج

ت: د. حسين فوزي النجار

الغلاف:

الإشراف الفني

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة الطاوئين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأندى والفكرى والإبداعى والعلمى، وإن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر
الواعد تقدم صفحات متألفة من متعة الإبداع
ونور المعرفة مصدر القوة في عالم اليوم..
صفحات تكشف عن ماضيها العريق وحاضرنا
الواعد وتستشرّف مستقبلنا المشرق.
د. سمير سرهان

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

AL AZHAR

**A MILLENNIUM OF
MUSLIM LEARNING**

BY : BAYARD DODGE

تقديم من الازهر الشريف

المساجد بيوت الله في أرضه وواحاته في ملكه وهي الأنهار التي يقتسل فيها عباده في كل يوم خمس مرات فتصفو مشاعرهم وتزكو ضمائرهم وتسلم من العلل نفوسهم وتستقيم على الجادة قلوبهم ، ومن أجل هذا أطرى القرآن منشئها وباركت السنة قاصديها ومعمريها . فقال تعالى : « (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . وأقام الصلاة وآتى الزكاة) » وقال : « (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأقام الصلاة وآتوا الزكاة) » وقال عليه الصلاة والسلام : « (من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة) » ، وقال : « (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله . شاب نشأ في طاعة الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد ... الخ) » .

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ومتعددة ، وقد اتفق العلماء على أن تاريخ المساجد على ظهر هذا الكوكب قديم بل هو موغل في القدم فقد سجل القرآن الكريم أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس وسجلت السنة المطهرة أن المسجد الأقصى هو المسجد الذي بنى بعده وجاء في الكتاب والسنة كليهما أن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعوا قواعد البيت الحرام ووضعوا أسسه ودعائمه ..

وروى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يعقوب بن اسحاق قد أقام المسجد الأقصى بعد أربعين سنة من بناء جده وعمه للمسجد الحرام . وقد عاش هؤلاء الأنبياء الثلاثة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وبعد خمسة وعشرين قرنا تقريبا أقام محمد صلوات الله عليه المسجد الثالث في المدينة فور هجرته إليها وبعد انتهائه من بناء مسجد قباء الذي أقامه فيها أثناء المدة القصيلة التي لبثها في هذه القرية قبل شخوصه الى يثرب . ومع تفاوت هذه المساجد الثلاثة في الشهرة وتفاوتها في القدر والرفعة فإنها متفقة فيما بينها في سمات ثلاث أحدها : أن كلا منها قد بنى على يد نبي ، والثانية : أن الصلاة فيها أكثر أجرا من الصلاة في غيرها ، والثالثة : أن الرجال لا تشد الا إليها وحدها .. وقد بنيت بعد هذه المساجد الثلاثة المئات بل الألوف من المساجد الأخرى

في الشرق والغرب • وفي ديار الاسلام وغيرها وراحت تتعاون على الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئه وتعاليمه علاوة على دورها الاساسي في اقامة الصلاة التي هي عمود الدين واساسه وذروة سنانه وقد انفرد من بينها مسجد ذراع صيته وشاعت شهرته حتى اوشك أن يحتل المكانة الراقية بعد المساجد الثلاثة التي ألعنا اليها من قبل وهذا المسجد هو الأزهر الذي بناه الفاطميون فور استيلائهم على مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة من مكة الى المدينة وقد كان القصد من بنائهم له تعليم المذهب الشيعي الاسماعيلي واحلاله محل المذهب السني على ضفاف النيل غير أن الله تعالى قد جعله منارة لأهل السنة ومشكاة تنبعت منها أقباس مبادئهم وتعاليمهم بعد زوال ملك الفاطميين وظل الأزهر يعمل لواء هذا المذهب ويحييه منذ بنائه حتى الآن غير وأن ولا مقصر مما جعله تاج المساجد ورايسها بعد المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة ، والسبب الذي من أجله استحق الأزهر هذه الرتبة ونال دون غيره تلك المنزلة هو أنه المسجد الوحيد الذي حمل على عاتقه مهمة حماية الاسلام ولفته وظل أكثر من ألف سنة كالطود الشامخ • لا تنال منه العواذي ولا تؤثر فيه الخطوب والأرزاء حتى صessar قلعة الحنيفية وحسن العربية • وحتى قصد اليه طلاب العلم وعشاق المعرفة من شتى بقاع الدنيا وأصقاعها للتزود مما لدى شيوخه العظام والجلوس منهم مجلس التلاميذ والطلاب وسبب ثان • وهو أن هذا المعهد المتيد كان يفتح ذراعيه للعلماء الفارين من وجه الظلم والاضطهاد في كل بلد يحتله أعداء الاسلام ويسيطون عليه سلطانهم وهذا واضح في الغزو الصليبي للشرق العربي والاجتياح المغولي للخلافة العباسية فإن أولئك هؤلاء لما زحفوا على بلاد الاسلام ودمروا حضارتها ومدنيتها وصبوا على أهلها جام البطش والانتقام لم يجد حواة العلم ولا عشاق المعرفة منهم ملجأ يهرعون اليه ويأمنون في رحابه غير الأزهر فاقبلوا اليه زرافات ووحدانا وكان الأزهر كما تصوره وتخيلوه ، فقد أمنتهم بعد خوف وأعزهم بعد ذل ولم يقدم اليهم العلم وحده وإنما أعطاهم كل ما هم في حاجة اليه أعطاهم اللبس والسكن والماكل والمشرب حتى الأوراق والأقلام والكتب والمحابر فانه وضع هذا كله بين أيديهم وتحت تصرفهم ، فالتدبر الذي استحقه الأزهر اذن والصيت الذي بلغه لم يكن هبة وهبت له ولا عطية أهديت اليه وإنما كانت جزاء وفاء لأعماله وأفعاله ودوره الذي لم يمارسه غيره •

ومند الوهلة التي وضع فيها هذا المعهد المتيد في أرض القاهرة وارتفعت مآذنه السابقة في سمائها والمشارت بل المئات من الكتب والمقالات تؤرخ له وتفيض في ذكر مآثره ومفاخره وتشرح أفضاله وتطري

أعماله وتبيين الجهود التي كان ولا يزال يبذلها في خدمة الإسلام ولقطة وقطع الطريق على أعدائهما الذين يترصدون بهما ويحشدون الحملات للنيل منها غير أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا جميعا من الموالين للأزهر ولا من المعارفين لقدمه ومنزلته وإنما كان بعضهم كذلك. وكان البعض الآخر من المتحاملين عليه والمسخرين أقلامهم لتنتقصه وتصيد السيوف له . ومن الكتب الجادة التي أنصفت الأزهر وعرفت له شأنه وقدمه وأخلت من الاسماء إليه والتهوين من فضلته وجهده وكانت محايدة في الكتابة عنه : الكتاب الذي كتبه الدكتور بيارد دودج تحت عنوان « (الأزهر في ألف عام) » وقد ترجمه من الإنجليزية الى العربية الأستاذ حسين فوزي النجار وجاز في التقديم الذي كتبه مؤلفه بين يديه أن الهدف من تأليف هذا الكتاب هو تعريف غير العرب بالثقافة الإسلامية التي يتولى الأزهر الشريف نشرها عن طريق الأساتذة والمعلمين الذين يتولون التدريس في أبنائه وساحاته وليس المقصد منه نقد هذا المعهد العتيق ولا التصدي لما يمكن أن يكون عليه من التآخر والملاحظات .

ولكي يكون المؤلف صادقا فيما يكتب مطمئنا الى صحته فقد غادر بلاده وأقام سنين طويلا عن كتب من الأزهر وناقض علماءه وغيرهم من أصحاب الفكر والقلم وهكذا توافرت لكتابه كل ما هو في حاجة إليه من المعلومات السليمة والآراء الخفية ..

والكتاب يحوى بين دفتيه تقديما وثمانية فصول وملحقا واحدا ، وصفحاته سبع وستون ومائة من القطع الكبير وقد تناول المؤلف في **الفصل الأول** : وعنوانه الأزهر والخلفاء الفواطم عددا من القضايا منها : بناء الأزهر والشماعة التي كانت تقام فيه في شهر رمضان وبواكير الدراسات الشرعية ومعالم الفكر الفاطمي . وحلقات الدراسة ، والحاكم بأمر الله ..

وفي الفصل الثاني : وعنوانه صلاح الدين والدولة الأيوبية تحدث المؤلف عن معاهد المصير الوسيط ومناهج الدراسة فيها وعرض للملوم العقليّة والنقليّة ووقف وقفة قصيرة عند كل من اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب والقراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ..

وفي الفصل الثالث : تكلم المؤلف عن تجديد الأزهر وأعطى فكرة موجزة عن السلطان الناصر وخلفائه .

وفي الفصل الرابع : وعنوانه الأزهر في العصر العثماني عالج المؤلف أمورا منها : المنح الدراسية ومشيخة الأزهر وتأثير التصوف في الحركة العلمية والصراعات التي كانت تلوح عند تولي بعض العلماء مشيخة الأزهر ،

كما عرض للحياة الثقافية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر • وعاد
الى الأزهر فتحدث عن تعليمه وتوسمته وحياة طلابه وأساتذته •

وفي الفصل الخامس : وعنوانه بداية التاريخ الحديث وركز المؤلف
على الحديث عن محمد علي وخلفائيه وجمال الدين الأفغاني والاحتلال
البريطاني •

وفي الفصل السادس : وعنوانه التجديد والإصلاح تناول المؤلف
الشيخ محمد عبده ودوره في إصلاح الأزهر وانتقل الى التعليم في الأزهر
فتناول مراحل الثلاث وهي : المرحلة الابتدائية والثانوية والعالية وانتقل
الى قضايا أخرى منها الحرب والثورة وما بين الحربين والحرب العالمية
الثانية •

وفي الفصل السابع : وعنوانه الأزهر بعد ألف عام تحدث عن
القضايا التالية : الجامعة والمعاهد الدينية النظامية والحرية ومستوى
الإدارة والمبنى الجديد لها وسجلات الطلاب المبصرين منهم والمكفوفين
(العميان) والانفاق والميزانية والدراسة والمكتبة والتربية الدينية
والصحية والخدمات الإضافية •

— يبقى الفصل الثامن : وعنوانه قضية المستقبل وقد عرض فيه
لبعض قضايا التعليم وتحدث عن الشبيبة الجديدة ••

— وأنهى المؤلف كتابه بملحق شرح فيه الإشراف على الأزهر عبر
المصور وسجل أسماء العلماء الذين تولوا زمام الإدارة فيه ومذاهبهم
والمنة التي لبثها كل واحد منهم في منصبه •

والذي يطالع هذا الكتاب من ألفه الى يائه ، يلاحظ أن مؤلفه قد
بذل فيه الكثير من الجهد ، فأسلوبه سهل ، وعباراته حسنة والمعلومات
التي حوّاها دقيقة ، وموثقة ، وعلى الرغم من أن المؤلف ليس عربيا ،
ولا مسلما ، فإنه لم يكن منحازا ، ولا متعصبا وإنما كان محايدا في أكثر
ما كتب ، بل لقد كان يكبر الأزهر ، وشيوخه ، ويدفع عنهم قالات الإفك
والزور ••

وبعد :

فإن ما تناولوه هذا الكتاب من حديث عن الأزهر ، ومنابعه ، والجهود
التي كان ولا يزال يبذلها في خدمة الاسلام ، ولفته القرآن شهادة حق
من عالم لا ينتمى الى هذا الدين ، ولا يقيم في دياره ، ولا ينطق لفته ••

تقديم المؤلف

ان الغاية من هذا الكتاب أن أزود قارئه بما لا يعرفه عن أعظم المعاهد الإسلامية شهرة ، والثقافة الإسلامية التي نمت وترعرعت في رحابه ، بينما كانت الثقافة اللاتينية تنشق طريقها الى الاستواء والتكيف ، ولم يكن مما أنشده أن أعرض للثقافة الإسلامية أو الأزهر ناقدا ، بقدر ما اجتهدت أن تكون تفسيراً لها كما يراها المسلمون .

ولا يعني في هذه الدراسة إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان لكثير الأزهر ، وعمداء الكليات الثلاث التي يضمها ومديري المعاهد الدينية ، والخلفاء الطبية ، ومكتبة الأزهر على ما قدموه من عون ومساعدة ولا أنسى في هذا الصدد الدكتور محمد البهي ، ومدير مكتبة حمودة عبد العاطي لمراجعتها ما كتبت عن الأزهر في حاضره القائم .

وقد قمت بتدوين هذا الكتاب إبان عملي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ولا يسمى إلا أن أنوه بما لقيته من عون القائمين على ادارتها ، وأساتذتها وكذلك أساتذة جامعة القاهرة ، وأخص بالذكر الدكتور محمد كامل حسين لما زودني به من تاريخ الفاطميين ، والأستاذ مصطفى زيادة ، وقد قام بمراجعة ما كتبت عن الحقبة المملوكية ، والدكتور محمد شفيق غربال لما وجهني اليه في دراسة الأزهر إبان الحكم العثماني في القرن التاسع عشر ، الى جانب القائمين على مركز الدراسات والوثائق بجامعة الدول العربية ، وغيرهم من المسئولين ممن يسروا لي الحصول على المعلومات والمصادر المعنية ، فلم مني جميعا خالص الشكر والتقدير .

ولا أنسى خلال اقامتي بالقاهرة أن أنوه بما لمسته من نشاط ثقافي ، وما أحسست به من تعاطف المفكرين والأساتذة نحو أي زائر ينشد منهم المون والتوجيه .

يسافره دودج

قائمة اذرة البحوث والتأليف والترجمة - جميع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالمراجعة والتصويب - /شكر لهم - (النظر الاجتهدي) .

خلفاء الدولة الفاطمية

٩٠٩ - ٩٣٤	المهدي
٩٣٤ - ٩٤٦	القاسم
٩٤٦ - ٩٥٢	المنصور
٩٥٢ - ٩٧٥	المعز
٩٦٩	جورج يفرز مصر وينشئ القاهرة
٩٧٢	اتمام بناء الجامع الأزهر
٩٧٥ - ٩٩٦	المعز
	المراد التماسات العليا
٩٨٨	بالأزهر على نظام قايما
٩٩٦ - ١٠٢١	الحاكم
١٠٢١ - ١٠٣٥	الظاهر
١٠٣٥ - ١٠٩٤	المنصور
١٠٩٤ - ١١٠٩	المستمل
١٠٩٥	الحملة الصليبية الأولى
١١٠٩ - ١١٣٠	الأمير
١١٣٠ - ١١٤٩	الحافظ
	بناء القصور الفاطمية بالأزهر
١١٤٩ - ١١٥٤	الظاهر
١١٥٤ - ١١٦٠	الفايز
١١٦٠ - ١١٧١	العاضد

الفصل الأول ، الأزهر والخلفاء الفواجرة

انشاء الأزهر

بدأ قائد الفاطميين انشاء الأزهر ليصبح المسجد الجامع للمعهد الجديد في جولة التنافس القائم على سيادة العالم الاسلامي بينهم وبين خلفاء بغداد ، وحتى نهي طيبة هذا التنافس فان علينا أن نهي الأحداث التي سبقته انشاءه .

فما أن انتقل محمد صلى الله عليه وسلم الى الرقيق الأعلى حتى انقسم المسلمون الى جماعتين متنافستين ، أهل السنة من أصبحت لهم السيادة على العالم الاسلامي بداية من قيام الخلافة الأموية في دمشق عام ٦٦١ حتى عام ٧٥٠ حين آلت الخلافة للعباسيين واتخذوا ببغداد مقرا للحكم . وكانوا بدورهم من أهل السنة ، ولا يعترف بحقهم في الخلافة الشيعة او التشيعيون ويدعون بالولاء للامام الذي ينحدر بنسبة الى فاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ويرون أنفسهم أولى بالخلافة ممن يعرفون بأهل السنة .

وانقسم الشيعة على أنفسهم بعد وفاة الامام السادس عام ٧٦٥ الى فرقتين : الاثنا عشرية ، يمثلهم في الوقت الحاضر شاه ايران ، والاسماعيلية اتباع اغا خان .

وقبل أن يبدأ الغزو الصليبي بقرون ، بدأت الطاقة الاسماعيلية حركة صرية مفعمة ضد الخلافة العباسية امتدت الى الشمال الأفريقي حملت جماعات البربر على الثورة حيث انتهت تلك البادرة أحد زعماء الطاقة الاسماعيلية فارتحل اليها متخفيا عام ٩٠٢ حيث تقوم تونس الآن واتخذ لقب المهدي حين تمت له السيطرة على حكومتها وادعى لنفسه الخلافة الاسلامية وأنه أولى بها من الخلفاء العباسيين وابتنى لنفسه الى الجنوب من تونس بناية ميل حاضرة دعاها المهدي ، وحين أدركته الوفاة عام ٩٣٤ كان قد أقام أسرة حاكمة عرفت باسم الفواطم نسبة الى فاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم وانهم أولى بالخلافة الاسلامية من العباسيين ، وكانت تلك هي البداية لقيام حكم الهوى في عالم الاسلام .

وحتى تتاح لهم فرصة التوسع والنفوذ ، رأوا في وادي النيل كما هو اليوم بفتحهم للتوسع والنفوذ والانتشار ، فما زالت القاهرة حتى

يومنا هذا القاعدة العسكرية لمصر للسيطرة على سووريا وفلسطين والجزيرة العربية ، ولم يكن غريبا أن تنشئ الدولة الفاطمية في الشمال الافريقي السيطرة على وادى النيل .

وبينما تمت للخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله السيطرة على الشمال الافريقي حتى الاطلنطي ، ونعم بما أغلق عليه هذا التوسع من ثراء كانت مصر تمر بأزمة مالية قاسية ترجع الى خلل انتاب الحكومة القائدة من ناحية وما اجتاحتها من وباء وما حل بها من مجاعة يقص لنا ابن خلدون ، ان الفلاء ثم الوباء الذي اجتاحت مصر قد عصف بحياة ستمائة ألف في مصر وتوابعها .

ويفيض السيوطي في تفصيل ما حدث بصورة أوفى مما كان من ابن خلدون ، ويقول انه لم يعد في مصر من يؤلف القلوب حوله ، فلما عرف المعز بما حدث كلف عامل أبيه جوهر الصقلي بغزو مصر على رأس مائة ألف من الجند فاجتاحها وتم له فتحها يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان في العام الثلاثمائة والثامن والخمسين هجرية (٩٦٩ م) .

وقد عرف المعز بما حل بمصر عن طريق ابن كلس أحد كبار رجال الدولة والذي نجا بنفسه من بطش رئيس حاكمه الى جانب ما حل بوادى النيل من اضطراب الأمن . وما يذكر عن ابن كلس انه قام باعداد الدراسات العليا للأزهر فيما بعد .

أما هذا القائد الشهير الذي عرف باسم جوهر فقد ولد عام ٩١٢ ، كما يذكر ، ولقب بالصقلي اما لأنه ولد في صقلية ، كما حمل لقب الكاتب لأنه عمل أميناً للمعز قبل أن يكلفه بقيادة جيش الفتح ، وقد اختار ليرق الجيش اللون الأبيض تقيضا للون الأسود يرق العباسيين ، وقد اختار جنده من قبائل البربر واجتاز بهم الى الاسكندرية فاحتلها دون مقاومة تذكر ، فلما اجتاز الى ما يعرف الآن باسم القاهرة لم يدع لجنده أن يخوضوا في زحام الأحياء القديمة للمدينة القائمة لخشخشتهم ، واختار لاقامتهم مكانا منفلا هو ما عرف فيما بعد باسم القاهرة ، دعاه حينذاك مدينة القاهرة المزرية ، واختصر فيما بعد الى - القاهرة - ويعرفها الأوروبيون باسم - كايرو - Cairo او ليكبر Le Cairo - أحاطه بخندق وحائط مرتفع لحماية والدفاع ويشقه من الوسط طريق ممتد ، وإلى الجانب الشرقي أقام قصرا فسيحا محصنا سكنا للخليفة ، وخص كل قبيلة من جنود البربر بجانب من المعسكر ، وإلى الجنوب من القصر أعد جانبا للمعبادة أصبح فيما بعد نواة لما عرف بالأزهر .

ولا يعرف حتى الآن لماذا عرفت العاصمة الجديدة باسم القاهرة أى الغالبة أو المنتصرة ، وقد جرت أقاويل طائفة الاسماعيلية فى سوريا - كما يروى الفلقشنلى (١) على أن تسميتها بالقاهرة ، لأنها أقيمت لتكون قاعدة لقهر الباسيين ، وتوحيد العالم الإسلامى تحت امرة الفاطميين ، وثمة قالة أكثر شيوعا تحكى أن جوهر الصقل حين بدأ بناء القاهرة طلب من المنجمين أن يشدوا حبلا اشارة الى ساعة يمن يتم فيها وضع اللبنة الأولى فى البناء ، فلما حط غراب على الجبل وحركه كانت ساعة نحس ، فدعيت باسم الكرية أو القال السيى ، فلما جاء للمز دعاءها القاهرة بدلا من الكرية ، وهناك قصة أخرى تقول انه حين تم بناء المدينة ، كان كوكب المريخ - القاهر - فى الأفق ، ورأى المنجمون أن تدعى المدينة باسمه وحملوا الخليفة اليه .

وقبل أن يتم بناء القصر ، كان جوهر قد بدأ اقامة المسجد للعاصمة الجديدة ، ودعاها جامع القاهرة ، وبعد مرور قرن من الزمان حل الاسم الجديد محل الاسم القديم ، وسرى اسم الجامع الأزهر من بعد .

وبدا بناؤه يوم السبت من ابريل ٩٧٠ ، وتم البناء يوم الثانى والعشرين من يونيو ٩٧٢ الموافق يوم الرابع والعشرين من جبادى الأول سنة ٣٥٩ هـ ، وتم البناء فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ . الموافق الثالث والعشرين من يونيو سنة ٩٧٢ م .

وفوق القبة بدائرها الى يمين المحراب والمنبر كتبت العبارة التالية عند أو بعيد انشائه :

(بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه
ابو تميم معد الامام للمز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله
عليه ، وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب
الصقل وذلك فى ستين وثلاثمائة .) .

أما تلك التسمية الضافية وألقاب التشريف فهى للخليفة الفاطمى أما جوهر فهو موله ، أما الصقل فترجع الى نسبته الأولى كما سبق القول .

وكان الأزهر أكبر من أن يكون مكانا للعبادة فحسب ، بقدر ما كان مسجدا أو جامعا حيث يلتقى المسلمون ، ففى هذا العصر الوسيط من تاريخ الإسلام كاد الفاتح المسلم يقيم المدينة ويصنعها ، ويشيد الجامع مكانا للعبادة ولقاء المسلمين فيعظهم ، ويلقى بتعليماته اليهم فى صلاة الجمعة كل اسبوع ، كما يعقد فى أيام آخر من الاسبوع جلسات للقضاء بين الناس ، وتقرير ما يفرض لبيت المال ، فى بهو الأعمدة من المسجد الجامع ، أما المحفوظات والأشايير ففى قاعات خصت بها داخل المسجد .

أما الدروس ففي المحارب والأبهاء وغالبا ما تقام الصلوات الخمس ويتم تحفيظ القرآن في المحارب ، وفي صلاة الجمع وأيام الصوم ، كما يأوى اليها المسلمون عند الشدة أو انتجاع الراحة وهو ما كان من الاغريق في معابدهم ومدارسهم ومحافلهم ، وعلى غرارها أقام عمرو بن العاص وأحمد ابن طولون مسجديهما في مصر القديمة ، وهو ما احتذاه جوهر في بناء الأزهر ليكون الجامع الرسمي للمعاصرة الجديدة .

ولسنا على ثقة مما دعا الى اطلاق اسم الأزهر على هذا البناء الجديد وإن كانت الكلمة تعنى - الضوء الباهر - وإن كان من المحتمل ألا يكون للمسجد القديم دلالاته الفريدة بمعنا أقام خلفاء المعز العديد من المساجد في القاهرة ، ولم يمد للاسم القديم - مسجد القاهرة - دلالاته المنشودة ، وإن بقي البناء يشرق بالاضافة الباهرة خلال شهر رمضان . وغدا - الاسم الجديد - الأزهر - تعبيراً عن النور المتشع ، وإن كان - وهو ما يبدو أقرب الى الحقيقة أن الفاطميين رأوا في الاسم الجديد ما يشجهم . إذ يذكرهم بالاسم الذي اليه ينتمون اسم السيدة فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم وكان لقبها - الزهراء وكان الفاطميون يطلقون على مسكنهم اسم - القصور الزاهرة - ونتمتوا حدائقهم بنفس الصفة . . وكان أمرا لا غرابة فيه أن يطلقوا على مسجدهم الجامع اسم الأزهر .

وقد أقيم البناء بداية على مستطيل من الأرض : طوله مائتان وثمانون قدما وعرضه مائتان وسبع وعشرون قدما ، وتقع بوابته الكبرى على امتداد حائطه الشمالى الغربى عبر الفناء الفسيح غير المسقوف دون أعمدة ، وفي نهاية الفناء أقيم المحراب على أربعة صفوف من الأعمدة أقيم عليها السقف ، ومن المحتمل ، دون حسم لواقع ما كان ، أن تكون هذه الأعمدة على كلا الجانبين الأيمن والأيسر من الفناء قد أقيمت في بداية البناء بحيث تؤدي الى المحراب في اتجاه القبلة ، والى اليمين من هذا القبو الصغير كان درج المنبر حيث يلقي الامام خطبة الجمعة . وقد زينت حوافه بالآيات القرآنية .

ولم يكن هناك في البداية مكان للوضوء فمن عتبة الفاطميين الا يؤم الفصل للمسجد الا متوضعا ، ولم تكن المثانة الأولى للمسجد على صورتها القائمة فقد بنيت بالطوب عند المدخل ولم تكن بهذا الارتفاع ، والى جانب المدخل عدة أبواب أخرى تؤدي الى الطرق الجانبية الأخرى ، وإن كانت الحوائط الخارجية قد استخدمت في بنائها الأحجار الرملية لحماية البهو الداخلى والأعمدة الراتمة من زحام السوق . .

وبعد عام وقد استكمل جوهر بناء الأزهر ، كان قدوم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله من الشمال الافريقى الى مصر ، وقدم الاسكندرية

سنة ٩٧٣ ، وكان في استقباله كبار رجال الدولة بالقرب من المنارة القديمة ، وفي ركابه خمسمائة جمل تحمل كنوزه وذممه الى عاصمته الجديدة ، فلما جاسها كان جوهر في استقباله فرحح ولثم الأرض بين قدميه .

وبعد ثلاثة أيام قضاهما المزم على ضفاف النيل ، قصد قصره المنيف الذي أعد لاقامته ، وقد تمنطق بعباءة من الحرير الأخضر موشاة بالذهب والجواهر وخاطب رعيته الجديدة بوصفه سليل المثرة النبوية ورئيسا دينيا منه ملكا حاكما .

ومع ما نسب الى الفاطميين من هرطقة ، فقد كانوا في الواقع رجال دين ، وائمة ديانة جريا على عقيدتهم ، فصلوا على تحريم البغاء ، واللواط وتعهد الزوجات ، والفجور والأحداث الشائنة والكلام المبثزل الذي يهين من جلال الاسلام ، وأغلقت الحانات ومنعوا الخمر والمسكرات ، وان كانت من الناحية الأخرى مباحة للنصارى واليهود ، فلم يافل النهار حتى كانت كلها مغلقة .

وفي عيد الفطر من عام ٩٧٣ ، أعلن الخليفة المزم أن الأزهر هو المسجد الجامع للعاصمة الجديدة ، وفي أول محرم من العام الهجرى وضع للأزهر نظامه وطريقة إدارته وما يحتاجه من خدمات ، عاد بعدها مع أبنائه الأربعة الى قصره مرتدين عباءات من وبر الجبل ممتطين الخيول العربية المطهمة تحرسها الفيلة ، وفتحت أبواب القصر ومدت الموائد ، لكل الناس ، فاكلوا ملء بطونهم .

وإزدان الأزهر خلال أيام العيد بالأضواء الباهرة ، والمزم يرقبه من برج أقامه بالقصر لرؤياه .

ولم يمض المزم طويلا لينعم بمآثره ، فقد وافته المنية سنة ٩٧٥ ، في التاسعة والأربعين من عمره ، وخلفه ابنه العزيز ولما يجاوز من العمر تسعة عشر عاما وامتد حكمه حتى عام ٩٩٦ .

ومما يروى عن المؤرخ العربي يحيى بن سعيد عن - هذا الخليفة الجديد حتى وان بقيت شمس الخلافة العباسية الفاربة على ما هي عليه ، فليس هناك حتى بين أولئك الخلفاء الأفارقة الضظام ما يدانيه واحدا بعد الآخر ما يمكن أن يقارن ، بالخليفة العزيز شجاعة وقدره ، ولا حتى في ملامحه الفريدة بشعره الأحمر وعينه الزرقاوين الواسعتين ، وما عرف عنه من جرأة وبسالة في الصيد ومعرفة بالخيل كمعرفته بالأحجار الكريمة فكان التل الفريد للفروسية العربية النبيلة ، بقيت تثير إعجاب الغرب وأكباره .

وقد وسعت شهرته العالم الاسلامي من مراکش الى اعالى القزق
ومن اقصى الجنوب فى اليمن فى الجزيرة العربية ، حتى راوا فيه الخليفة
الحق للنبي - صلى الله عليه وسلم - وان كان قد اتخذ وزيرا مسيحيا
وزوجة روسية كان من اخوتها بطريق الاسكندرية وبطريق بيت المقدس ،
فانه لم ينس الأزهر ففدا على يديه مركزا للدراسات الاسلامية بعد أن
كان مسجدا جامعا للقاهرة عاصمة الفاطميين فحسب .

١ - شعائر ومضام :

ومضى العزيز على سنة أبيه فى الوعظ بالأزهر مرة على الأقل من
أيام الجمع خلال شهر رمضان ، وقد سجل المؤرخون العرب العديد من
التفاصيل عن تلاوة القرآن ، والشعائر التى تجرى خلاله فى صورة
دقيقة صافية ، فتفرش الحصر لتغطي أرض المسجد ، كما توضع ثلاث
وسائد أمام المحراب لسجود الخليفة ، ولحماته من أى خطر يجد ، يحاط
المحراب بحشايها تعلق بين الأعمدة ، وحتى لا يلج المسجد قاصد قبل دخول
الخليفة يحاط المدخل بسلسلة لا ترفع الا بعد دخول الخليفة .

وفى نفس الوقت يتخذ جند الحراسة أماكنهم ما بين القصر الكبير
والقصر الصغير المواجه له ، وتبدو المدينة حافلة بالبهجة والناس فى
أرديتهم الزاهية والمفاصل ، تفر الطرقات بالأنواء .

وما أن يحين موعد خروج الخليفة . حتى تفتح بوابة القصر الذهبية
ويخرج الخليفة فى موكبه وقد أحاط به كبار رجال الدولة . والمدعوين ،
فى عبادته الخيرية البيضاء ، وعلى رأسه وذراعيه الطيلسان ، وصولجان
الحكم فى يده ، متمنطقا بالسيف الى جانبه ، والمظلة محلاة بالجواهر
تملأ هامته ، وفى المقدمة حفظة القرآن يرتلون فى خشوع آيات مختارة
من القرآن ، فى مسيرته عبر الطريق الأوسط من المدينة الى مبنى الأزهر
بجدرانه الساقطة التى تملأ على ما حولها .

وما أن يلج الخليفة بوابة المسجد ، ويتخذ مجلسه الى جوار المحراب
المنطى بالستائر لحماته ، حتى يؤذن للمصلين بالدخول والأذان يغم
أجواء المدينة وأهباء الأزهر من داخله . وعقب البخور يسم المنبر فرتيقه
الخليفة ، ليلقى موعظته ، وقد بدأ والستائر من حواله كأنه فى هودج
على ظهر جبل . ويملأ صوت قاضى القضاة من مكانه بالمسجد بالدعاء
أن يسبح الله نعمته على حضرة سيده الملكية ، يلقي بصفه الخليفة موعظة
قصيرة ، ومختارات من القرآن ، فإذا قضيت الصلاة خرج المصلون فى
جماعات وفق نظام معين ، ويمرود الخليفة الى قصره ، والوزير وراءه ،
وتشرب الطبول والبوقات فى أثناء مسيرة الموكب من الجامع الأزهر الى
القصر الخليفى .

وغدا الأزهري من بعد المسجد الجامع لعالم يمتد من بلاد الشام في المشرق الإسلامي إلى حافة الأطلنطي في المغرب العربي ، وما زال وقد امتد به الزمن ألف عام المسجد الأعلى الأصيل في مصر ، وأحد المراكز الإسلامية الكبرى للعبادات في العالم بأسره ، ولا تقف مكانته على هذا وحده بقدر ما ترجع إلى مكانته العلمية ومجاليه في التعليم والدراسات الإسلامية العليا .

بواكير الدراسات الشرعية :

ترجع الخلافة الفاطمية ، كما سبق القول ، إلى ، فرغ من فروع الحركة الإسماعيلية السرية التي قامت أصلا لنقل الخلافة الإسلامية إلى عترة الرسول صلى الله عليه وسلم بديلا للخلافة العباسية القائمة في بغداد .

وعندما بدأت الحركة في بواكيرها الأولى ، لم تكن الطائفة الإسماعيلية من القوة أو القدرة على المواجهة العسكرية ما دامت تصجز دون إعدادها ، فلجأت إلى الدعوة الدينية على أصول فكرية باوعة جندت لها الدعاة والمبشرين لكسب الانصار والأعوان .

حتى إذا اقتحم الفاطميون وادي النيل غزاة فاتحين كانوا يدركون تماما أنهم يواجهون مجتمعا سنيا له تعاليمه وشريعتهم الدينية الغالية ونهجهم في العبادات ، عزفوا عن أن يواجهوا تلك الكتلة من المواطنين أو يعيبوا تعاليمها ، بقدر ما عملوا على كسبها بالدعاية والدعوة لعقيدتهم ، وكان مما سلكوه في هذا النهج الطريق المشروع الذي يتواءم مع دعوتهم وعقيدتهم ، فلما نجح المز في الاستيلاء على مصر ، عمل على أن يعد جماعة من الفقهاء وعلماء الشريعة القادرين على إحلال التعاليم الفاطمية بديلا لتعاليم السنة ، وأعد لذلك نفرا من فقهاء الشمال الأفريقي . جاء بهم إلى عاصمته الجديدة - القاهرة - كان من بينهم اثنان عرفا بالقدرة الفائقة على تحقيق ما يبتغون ، أولهما أبو حنيفة النعمان بن محمد من مواليد القرن العاشر جاء إلى القيروان وهي من مدن تونس في الوقت الحاضر ، وعكف على دراسة الفقه السني والشيعة ، والتحق بخدمة الفواطم ، عمل في البداية قاضيا إقليميا ثم اختاره المز قاضيا ومشعرا لبلاطه ، وجاء القاهرة ليخبر فيما يجب لتقنين التشريع للدولة الجديدة ، وتوفي قبل قسوم المز إلى القاهرة بوقت قصير وخلفه ابنه قيسا على تشريعات الدولة الجديدة . أما الثاني فهو يعقوب بن كلس ، وقد أشرنا إليه من قبل ، وكان من يهود بغداد عمل تاجرا في دمشق حتى عام ٩٤٦ ، وأمر ما نزح هاربا إلى مصر وأصبح من ثرائها ومن كبار رجال الأعطال فيها ، وما لبث أن درس الشريعة والعبادات الإسلامية سرا ، واعتنق الإسلام عام ٩٦٧ .

وأخذ يمارس الصلاة في مساجد القاهرة القديمة • مسجد عمرو بن العاص ، ومسجد أحمد بن طولون ، وغدا موسوعة فكرية وأدبية فسيحة يؤلف الكتب في الدراسات القرآنية والفقه ، والفلسفة وعلم الأخلاق ، والصحة وفي كل ما يمرض له من بحث ، واستخلص عددا من النسخ لنسخ ما يعن له من كتب تستهويه •

فلما ناشت الفوضى مصر في أخريات الدولة الأخشيديّة ، غادرها (ابن كلس) (١) إلى بلاد المزم ، وأقنعه بفتح مصر ، فلما تم الفتح أصبح لابن كلس نفوذه ومكانته في الدولة الجديدة وأصبح صاحب مشورة في تنظيم شئونها الداخلية •

فلما توفي المزم ، وخلفه العزيز ، اتخذ من علي بن النعمان عوناً له في تطوير النظام القضائي بمصر ، وعهد إلى ابن كلس بمهام كبرى ثم اتخذه وزيراً في النهاية •

وفي السنوات الأولى من حكم العزيز ، كان أهل السنة من أبناء القاهرة مازالوا يمارسون شعائهم في المساجد القديمة ، مسجد عمرو ابن العاص ومسجد أحمد بن طولون في مصر القديمة ، بينما بقيت التعاليم الشيعية الضالة تدور في أيها القصر ، وإن اتخذ القاضي علي بن النعمان ، والرجل صاحب النفوذ ابن كلس ، من الأزهر قبل ذلك بأمد ، مقراً للدراسة ، الفاطمية ، ويقص المؤرخ المقرئى كيف اتخذنا من الأزهر منذ البداية مقراً للدراسات العليا •

وفي صفر من عام ٣٦٥ هـ - (أكتوبر ٩٧٥) - التقى - علي ابن النعمان - في جامع القاهرة ، المعروف بجامع الأزهر ، بأناس ، أملى عليهم كتاب أبيه : (خلاصة القانون) وقد استخلصه مما نسب إلى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم من أفعال أو أقوال ، عرفت باسم - الاقتصاد - كتبها أبو حنيفة النعمان ، وكان الحضور غفيراً جرى تجديد أسمائهم •

وحين استوزر العزيز بن المزم - يعقوب بن كلس - أعد مسجداً في قصره لطلاب العلم من الأدياء والشعراء ، وطلاب اللاهوت ، وأرباب السلطة وقرر لهم الرواتب والمعاشات ، ووضع لهم كتباً في الفقه ويوم الثلاثاء من كل أسبوع يعقد لهم اجتماعاً يدعو إليه طلاب القانون والجدل للحوار والنقاش ، كما جرى أن يعقد اجتماعاً يوم الجمعة من كل أسبوع يقرأ على الناس انشاده ، ويحضره القضاة ، وطلاب الفقه ، وحفظة القرآن والفقهاء ، والمستولون عن العرف والتقاليد •

(١) أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس •

ويمضي المقرئى ، بعد الحديث عن كتاب ابن كلس - دعالم الاسلام - فيقول : « كان ابن كلس أول وزراء العولة الفاطمية فى مصر ، ودير أمور مصر والفسام والحرمين الشريفين فى الحجاز وبلاد وأعمال هذه الاقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء (١) ثم أصدر العزيز بالله فى شهر رمضان سنة ٣٦٨ - وكان يقع فى الفترة من ٢ من شهر ابريل حتى أول فسمهر مايو ٩٧٩ - أمرا بمنح ابن كلس لقب - الوزير الأجل - والا يخاطبه أو يكاتبه أحد الا بهذا اللقب ، ثم أنابه الخليفة فى التوقيع عنه فى جميع المكاتبات الصادرة عن الخليفة ، وقد صدر قرار الانابة فى شهر المحرم سنة ٣٧٣ ، وكان يقع فى الفترة من ١٥ من شهر يونيو الى ١٤ من شهر يوليو سنة ٩٨٣ » .

والى جانب الرواتب والمعاشات التى تمنح للطلاب ، وكان عددتهم خمسة وثلاثين طالبا - يتكفل الوزير ابن كلس بها من ماله الخاص ، ودرج العزيز على كسانهم فى عيد الفطر - لكل عبادة ، ولكل بفل لركوبه . وقد تم كل ذلك - كما يقول المقرئى - بعد أن قرأ ابن كلس ، كتابه - الرسالة الوزيرية - وكانت البداية لتاريخ الأزهر العلمى ومجاله فى البحث والدراسات العليا .

ويمضى القلقشندى فى قول آخر ، فيقول : ان الوزير ابن كلس سأل العزيز أن يزود الطلاب بوسائل الراحة وبما يكفيهم من نفقة كل طالب على حدة ، فاعد لهم دواقا الى جانب الأزهر يكفل لهم تلك الحاجة ، وبعد عامين اقترح ابن كلس أن تكون تلك الفصول (جامعة) تقدم مناهج والية ، وكانت البداية لنظام دراسى استمر ألف عام من حياة الأزهر الى وقتنا هذا .

عالم الفكر الفاطمى :

كان من وراء الاتجاه الى اتخاذ الأزهر مقرا للدراسات المتقدمة : عاملان ، أولهما توجيه المسئولين الى احلال التشريع الفاطمى محل التعاليم السنية ، وثانيهما اعداد الدعاة لهداية الناس الى المنهج الفاطمى ، بعد سنوات طوال من صياغة المنهج السنى ، قبل تقوم الفوطام .

وكان التباين بين المنهج السنى والمنهج الفاطمى يدور حول أربع سمات أولها عقيدة - الامامة - أو الخليفة الفاطمى وما يقوم عليه من قداسة يستمها من انتمائه الى السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه النفحة من القداسة ، تمنحه حق الطاعة على

(١) للمقرئى : المجلد ٣ ص ٨٠٧ .

رعاياه والايامن به من تابعيه ، وهو ما يبدو يسيرا في تلك الحقبة من
العصور الوسطى ، مما حمل الفواطم على البقاء بمنأى عن الناس الا ما كان
من مناسبات دينية تقتضيها المراسم .

والسمة الثانية لهذا التباين ، أن الفاطميين ينتمون الى العترة النبوية
الشريفة وانهم ورثة كل ما كان له من حقوق في حياته ، يستندون في
هذا الى بعض آيات القرآن وان كانوا يفسرونها على هواهم - كما كان
تفسيرهم للآية الحادية والأربعين من - سورة الأنفال :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول
وللذي القربى ولليتامي والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم
بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان
والله على كل شيء قدير » .

وفسر الفاطميون الآية على أن لهم عشرين في المائة من دخل الدولة ،
وكان عليهم ، أن يحملوا دعايتهم على اقتناع الرعية بها . وانها حق من
حقوق الخليفة .

والسمة الثالثة للدعوة الفاطمية ، ما يدعونه من (قداسة الخليفة)
فقد أوتي محمد علم الظاهر والباطن ، فلما انتقل النبي الى الرفيق الأعلى ،
أوصى بالامامة لعل - ابنه بالتبني ، وأوصى بها على للأمة من ورثته ابنه
فاطمة الزهراء ، وله . ولذلك كانت الدعوة لهذه العقيدة في الأظهر كل
ما يفتونه ولهذا اعدوا الدعاة لها مسلحين بتلك المعرفة الفريدة ، أو تلك
القوى الروحية التي سلكها أسلافهم من قبل ، يوغلون في تلك الدراسات
أكثر مما يوغلون في تفسير القرآن ، مما لا يعين العامة من الجهلة ، وان
حشدوا في بلاطهم نخبة من الدارسين والفقهاء النابهين (١) وان كانوا
من المنتسبين بالدراسات اليونانية والعلم الاغريقي ، وانغمروا بعلم ما وراء
الطبيعة ، لم تكن لديهم القدرة على متابعة المنهج العلمي بطريقة موضوعية ،
وان كانوا يملكون من المعرفة بعلوم ما وراء الطبيعة ما يمكنهم من تأييد
حق الخليفة في الحكم .

وحتى يتسنى لهم شرح تلك المبادئ وكسب الأعوان - كما هو
اليوم في العمل الحزبي - كأعضاء - يناصرون حكومتهم ، وكان أن اتخذ
الفواطم طريقة متلى للهداية والتنظيم .

فإذا عدنا الى ما تركه الباحث أحمد حميد الدين الكرماطي من
احصاءات وسجلات ، لأدركنا أن الفاطميين قد جننوا ما يتوف على تسعة

See Series of articles on these matters, Muslim World 1966; (١)
January, pp. 30-38, pp. 130-141.

آلاف من العملاء للتبوية بعقيدتهم ، يطلق عليهم اسم الدعاة ، على درجات متباينة من المكانة ، أشبه بالنظم الكنسية للقسس والمطارنة لهم طقوسهم وشعائرهم وإن لم تكن من قبيلها ، ولكل عضو في هذا النظام الهرمي مراتبه ودرجته الوافية ، فالطائفة من الطبقة الدنيا مجاله الغمار والعامّة من الناس ممن يمون، ما يقول ، وكل ما عليه ، أن يعلم الناس ما يعنيه الاسلام ، وعليه أن يثير تساؤلات الناس عما يجهلون ، أو لا يدور في أدمغتهم .

أما الدعاة ممن يحتلون درجة أرفع ، فإن عليهم أن يكرسوا شعائر الولاء وأن يقوموا بهداية الناس الى بعض التعاليم والمراسم الفاطمية ، وشرح الرموز والتفاسير القرآنية التي تميز دعاوى الخليفة في الحق الالهي للحكم ، وعلى العملاء - كما يسميهم د. بايارد دودج - أو الدعاة المتميزين والمختارين من ذوى الثقافة الرفيعة والتعليم العالي أن يراقبوا مساعدتهم ، وأن يكون لهم دورهم البارز في الحوار مع زعماء الفريق المناوئ وقادته .

ويبدو يقينا أن الفاطميين قد اتخذوا من الأزهر محفلا لتدريب هؤلاء المتخصصين ، من الدعاة والعملاء ، وأن القدر الأوفى من التجليم والتعاليم يتم في القصر ، ومن بعد في دار الحكمة بعد انشائها .

التون الأول :

كان القرآن أول ما يدرس في الأزهر ، حيث يلتقي المؤمنون ليسمعوا الى محكم التنزيل وتفسيره ، حتى كان عام ٩٧٥ - كما ذكرنا - وقام على بن النعمان بأعلاء خلاصة لكتايب أبيه - دعائم الاسلام - و - كتاب الاقتصار - على الحضور ، شرحا للمقيدة الفاطمية . . . وقد حوى كتابه - دعائم الاسلام - شروحا ضافية في مجلدين جديدين . أما كتاب - الاقتصار - فقد صدر في مجلد واحد ، مع ملخص لفحوى الكتاب المطول . وكلا الكتابين من جزئين ، يعرض الجزء الأول لقواعد المقيدة الفاطمية السبع ، وقواعد السنة الخمس :

فقواعد المقيدة الفاطمية هي :

الايان - الطهارة - الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج - الجهاد - وقواعد السنة هي :

الشهادتان (الايمان) - الصلاة - الزكاة - صوم رمضان - حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا .

وأولاهما بالشرح والتفسير ما اتصل بالشهادتين ، فالسنة : هي - الله لا اله الا هو وحده لا شريك له وإن محمدا عبده ورسوله ، وهي ايمان

يجمع عليه المسلمون • إلا أن الفاطميين يخالفون السنة فيما يضيفونه إلى الشهادتين بحق على في امرأة المسلمين ، وهو ما تعرض له بالتفصيل •

والكتاب الثاني ، بعد القرآن - مما يدرس في الأزهر ، فهو - الرسالة الوزيرية في الفقه - وتتناول تعاليم الشيعة الدينية • من تأليف ابن كلس وكانت قواما لمحاضراته التي بدأ يلقيها في الأزهر خلال رمضان ، ومن الواضح أن فيه تكرارا لما تناوله في كتابه - دعائم الاسلام -

وخلال الجيل التالي تناول حفيد القاضي النعمان ، في كتابه : (اختلاف أصول المذاهب) (١) • وقد يكون من دواعي تأليفه ، إرشاد المسئولين من رجال الدولة ، والدعاة وتعليمهم ما بين النظام الشيعي ، وما يدين به عامة الناس من مذاهب ، حتى يتسنى لهم أن يكسبوهم إلى جانبهم •

ولا يذكر المؤرخون أسماء المتون الأخرى للدراسة ، وإن كان لنا أن نفترض وهو ما يبدو مقبولا ، الاستعانة بالمراجع والأصول القديمة لعلوم اللغة والخطابة والوعظ ، ومنها ما قام بتأليفه العلماء الفاطميون أنفسهم ، مما يتصل بتفسير القرآن وحديث النبي ، وأكثرها مما صدر خلال العصر الفاطمي ، وإن لم تكن ثمة مصادر أصيلة في هذا الصدد تعرض لما كان يدرس منها بالأزهر •

حلقات الدروس :

كان هناك ثلاث حلقات دراسية تدور في الأزهر ، أولها تضم مجموعة من النخبة المتدينين يؤمّنون الأزهر ، ينصتون إلى قراءة القرآن وتفسيره ، وثانيها حلقات للدارسين يتحلّقون فيها أرضا حول الشيخ الذي يقتصد كرسيًا من الخشب أو الجريد حتى يسمح الدارسون صوته ، وكان لكل شيخ عمود لا يغيره ، يمثل عليهم ، ويجب على أمتلتهم ، واثلتها محاضرات عامة يلقيها رئيس الدعاة ، أو الإمام نفسه •

وتعقد هذه الحلقات ، وتسمى - مجالس الحكمة - يوم الاثنين للعامة ، ويوم الخميس للخاصة ، ويقعد أكثرها بساحة القصر ، كما كانت حلقات الدرس للنساء غالبا ما تعقد في الأزهر • كبرى حلقات الرجال أيضا • وكان يطلق على الدارسات في مجلس النساء لقب (المؤمنات) وكانت الحلقات قاصرة عليهن •

وكانت لثة الدروس ذات طابع شعري يجنب إليها المتعلمين ، ولما كانت الدروس لا تستغرق وقتا طويلا ، مما يسمح لمناقشات حرة لشغل

(١) اختلاف أصول المذاهب تأليف عبد العزيز بن محمد النسلان - للألف •

الوقت • وان كانت المادة الدراسية تقوم على النصح أو التحذير الأخلاقي مما يتسق مع تعاليم القرآن فإن التعبيرات الرمزية كانت تتيح تقديم الفكر الفاطمي عن حق الخليفة الالهي في الحكم في أي حديث أو محاضرة •

وفي نهاية الموسم الدراسي فإن الحضور يقومون بتقبيل يد المحاضر ، وختم الخليفة المرفق بالنص •

ومما يؤسف له أننا لا نعتز على مصغر موثوق عن الموضوعات التي كانت تدرس بالأزهر خلال العصر الفاطمي ، ومما يذكر في كتاب قديم عنوانه - الفلك الموار (ص ١٦٥) ما يأتي :

« كان على القائمين بالدعوة الفاطمية ان يلموا بعلوم اللغة (اللغويات) والفلسفة والمنطق ، والفلك واصول الفقه في الأزهر ، فاذا بدا تفوقهم العلمي ، قبلوا بدار الحكمة حيث يتفرغون لدراسة المعالم الأساسية للعقيدة القائمة ، مما يعد ضرورة كبرى ودعامة للحركة ، وهذا الفريق الذي يتناسب الى دار الحكمة يسمى - مائة الرشد ، او كعبة الهدي ، ويتبعين الحق - قبة الهداية - » •

ويؤكد هذا النص ما قيل من أن الأزهر كان مقرا لدراسة تلك العلوم من قبيل الفلسفة والفلك بالاضافة الى الدراسات القرآنية •

ويقدم الرحالة الفارسي المشهور - ناصر خسرو - تفصيلات وافية عن دراسته خلال السنوات التي قضاها بمصر اواسط القرن الحادي عشر ، وأصبح داعية ، وتضفي هذه التفصيلات مزيدا من الضوء على ما كان عليه التعليم خلال الحكم الفاطمي في مصر ، فيقول :

« ما ان اتم ناصر خسرو حفظ القرآن قبل ان يبلغ العاشرة امضى تسع سنوات في دراسة للغة العربية نثرا وشعرا ، وعلوم الصرف والاستقاق ، وقواعد الحساب ، وما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة درس الفقه والشريعة والحديث وتفسير القرآن ، والتاريخ والانشاء العربي ، وفي الثانية والثلاثين درس اسفار موسى الخمسة ومزامير داود والاناجيل ، وعكف بعدها ست سنوات على دراسة تلك الكتب القديمة ، ثم اخذ في دراسة علوم الفرس ، وقانون الطب لابن سينا ، ثم الرياضيات العليسا والاقتصاد التجاري والسياسي ، واخيرا وقد بلغ الرابعة والأربعين عكف على دراسة للوسوعة البريطانية والقبل على تعلم السحر والعرافة ، وتعاليم يسوع فيما كتبه ابن ارفا عنه » •

وليس من المستبعد أن تشمل دراسات الأزهر دراسة المعهد القديم
والمعهد الجديد واللغتين اليونانية والعبرية .

أما دراسات السحر والخرافة فلم يكن لها مكان في الأزهر ، ولم
تكن مما يدين بها الفاطميون أو يصدقونها ، وإن كان من المحتمل أن
وجود مستشفى بالقاهرة قد أدى الى الاهتمام بصناعة الدواء ودراسته
في المستشفى بدل الأزهر . بينما عهد الى معلمين أخصائيين بتدريس علوم
التجارة والرياضيات العليا في الأزهر ، ولنا أن نصدق ما ذكره ناصر
خسرو من اضطلاع الأزهر بتدريس اللغويات والأدبيات وفقه اللغة
والدراسات القرآنية وكذلك المنطق وبعض الرياضيات وعلم الفلك .

الحاكم بأمر الله :

خلف الحاكم أياه العزيز سنة ٩٩٦ م وامتدت خلافته حتى سنة
١٠٢١ م (١) . وكان من أعظم الشخصيات اثاره في التاريخ . وكان
— كما يروي ابن أيك — مازال طفلا حين أدى مواعظته الأولى بالأزهر خلال
شهر رمضان ، وفيما بين سنة ١٠٠٠ و ١٠٠٥ ، بدأ يمارس مهام الحكم
بالتجوال في مطارح القاهرة ليلا ، وكان أن بقي الناس في حوزيتهم مضاع
ليلا ، وولفوا في العيث ، ولا نعلم ما كان من موقف رجال الأزهر حيال
ذلك ، ولم يمض زمن حتى عاد الحاكم الى التدين ، والاهتمام بالنواحي
الدينية فقام بتجديد الأزهر سنة ١٠١٠ م ، ومما قام به نقش بوابة
الأزهر ، وما زالت تلك البوابة من مقتنيات المتحف العربي بالقاهرة .

وإذا كان العزيز هو الذي بدأ بناء الأزهر فإن الحاكم هو الذي
أتم البناء سنة ١٠١٣ ، واتخذ المبنى الجديد اسم — مسجد الحاكم —
أو الجامع الحاكمي — ويقع الى الشمال من نهاية القصر ، وبقي على حاله
خارج بناء المدينة حتى جاء ابنه الأكبر وأعاد بناء التحصينات شمال المدينة
من نهايتها . واتصل بناء المدينة بالجامع .

ومع ما جرى عليه المسلمون من أداء الصلوات الخمس ، فإنها قصرت
على صلاة الجمعة ظهرا ، وتقتصر على خطبة الجمعة والابتهاال بدوام الخليفة
وأن يسبح الله عليه نعمته ، وقبل أن يقام بناء الجامع الجديد كانت مراسم
الصلاة تؤدي في الأزهر . وما أن تم بناء جامع الحاكم ، وهو ما يشير
اليه ، المفضل بن أبي الفاضل عن تلك الفترة من التاريخ بقوله :

« رأيت فيما يروى من تاريخ الحاكم أنه في رمضان من
سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ و ١٠٠٠ م) أن صلاة الجمعة أقيمت

(١) تقابل .

بمسجد الحاكم الجديد خارج باب الطابية بالقرب من باب
الفتوح ، وكان الخليفة يلقي عظمته وعراسه صلاة الجمعة مرة
في جامع ابن طولون ، وأخرى في مسجد مصر ، ولم تعد تقام
في الأزهر (١) » .

ويذكر السيوطي ، ما يقارب ذلك ، ويضيف : أن الأزهر بقي مستقلا
حتى عهد الظاهر بيبرس (٢) ويؤيد المقرئى ذلك ، بينما يذهب مؤرخ
يُدعى - ابن أبيك الى أن الحاكم كان يؤدي صلاته ووعظه في جامع
الجديد ، وكانت أول ما كان منها ، وأمر ألا تقام في الأزهر ، فلم يعد له
مكان من بعد .

ومما يبدو أقرب الى الصواب ، أن الحاكم حين أقام مسجده رأى
أن يجلب الناس اليه ، فسبح لهم بأداء صلاة الجمعة في الحي الجديد
الذي ابتناه ، وفي نفس الوقت لم يشأ أن يحملهم على هجر صلاتهم في
جامع أحمد بن طولون وعمرو بن العاص في مصر القديمة بعيدا عن
عاصمة الفاطميين ، وإن صلاة الجمع قد عادت الى الأزهر قبل نهاية
الدولة الفاطمية ، وهو ما تؤكده أقوال النقات من المؤرخين ، وهو ما تشير
اليه في الفصل التالي .

Patrologia Tome XII, pp. 501-502. It is question as to
whether the date in this quotation is correct. (١)

Süğüti, Part II, p. 115 — Maqrizi (Khilat) Part IV, p. 53. (٢)

الأزهر وخلفاء الفواطم

ما أن ذاعت شهرة الأزهر ، حتى رأى كبار المخطولين ، تحسين أروقة الطلاب وتهيتها لحياة مريحة ، فاختلوا في تجميل المبنى ، وتوسعة دار المخطوطات ، وزيادة حلقات الدراسة ورفع مستواها .

ويذكر المقرئ أن الحاكم قد استعمل عتدا من شيوخ الأزهر لهذه حلقاتهم الدراسية في مسجده الجديد ، وفي نفس الوقت قام بتحسين بناء الأزهر وأوقف عليه بعض الهيئات المالية شأنه شأن غيره من المعاهد الأخرى وتمثل هذه الأوقاف ، أو الهيئات في المباني ، والحوافيت في مصر القديمة وغيرها من أقسام القاهرة - وهي مما لا يمكن بيعة أو تغييره - أو الاعتداء على أبنيته ، وكان ما يحققه الأزهر من هذا الدخل يجري صرفه على النمط التالي :

الناعية	دينار
فراش الحصر	١٠٨٠٠ »
حمولة ثلاثة جمال من التواجن والنجاج	١٢٧٥ ديناراً
كافور ومسك وارء الهند	١٥٠٠ دينار
حمولة نصف جبل من الشمع	٧٠٠ »
نقلانة للمسجد وترميم الحصر	٥٠٠ »
فحم نباتي للبخور	٥٠ ديناراً
حمالات للمؤونة والمصاييح والأسلف	٢٤٠٠ دينار
سحب النخل وحبال وأربعة جرادل	٥٠ ديناراً
فماش لتنظيف المصاييح	٥٠ »
سكاكين ودوبارة للتعليق	١٠٢٥ »
١٢٠٠٠ رطل من الزيت	
للاضاءة واجور التوزيع	٣٧٥٠٠ دينار

وكانت تلك هي نفقة الجامع ليمارس نشاطه الدراسي والديني ،
والى جانب ذلك نفقات في صورة هبات ، تتطلبها الدراسة تحت اشراف
- المشرق - يماونه مساعلون أربعة ، ليس هناك ثمة بيان لما يتقاضونه
من أجور مقابل ذلك ، وان هذا أنهم يتقاضون أجورا خاصة .

والى جانب تلك الهبات المالية . كانت هناك هدايا لها قيمتها ،
ومن قبيل ذلك فانوس كبير للسقف - تنورة - الى جانب اثنتين
وسبعين تنورة أخرى صغير من الفضة الخالصة ، قضاء خلال شهر
رمضان ، ولكنها تخزن وتسان في اماكن خاصة في غير شهر رمضان -
كما اقام بنديرة من الفضة الخالصة أعلى المحراب وفي منتصف الطريق
اليه لتجميله وتزيينه .

ومع ما كان من اهتمام الحاكم بالدين مما أضفى على الأزهر مزيدا
من الرعاية والازدهار ، كان من سلوكه ما يتسم بالفراية والشذوذ ، فقد
منع بعض الخضر من التداول وحرم بيعها ، الى جانب محرمات أخرى تتصل
باسماء عرف أصحابها بمداوتهم للفاطمين ، ولم يكتف بتحريم الخمر
وتحطيم أوانيها ، بل حرم ما يدخل في صناعتها كالعنب والفصل ، وعن
له أحيانا أن يحرم ركوب الدواب في القاهرة ، أو يأذن للمشاة بالمرور
قريبا من القصر ، كما أمر بقتل الكلاب ، أو إبعادها . وفرض أردية
خاصة للنصارى واليهود ، وحرم عليهم ركوب الخيل ، أو تزيين برادع
الحبر ، وأقلل العديد من الكنائس وأمر بهدمها ، وانقلب على المنجمين
فأقصاهم عن قصره .

وفي السنوات الست الأخيرة من حكمه حرم على النساء الخروج من
منازلهن . وأقفلت الحمامات الخاصة بهن ، كما حرم صناعة الأحذية لهن .

وخلال عام ١٠١٧ ، وقع الحاكم تحت تأثير فارسي يدعى الدرزي قاده
الى مهاو شاذة ، يعينه عليها تابع آخر يدعى - حمزة - حمل الحاكم على
هجر معتقداته القديمة ليصبح رائد الدعوة الجديدة ، يأتي على ذكر
أحداثها كاتب عربي على الصورة التالية :

« ينتمي الدرزي الى اصل فارسي وكان يدعى - محمد
ابن اسماعيل - وفد الى القاهرة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)
ودخل في خدمة الحاكم بامر الله ، وكان أول من غزاه بالاتجاه
الجديد ، الا ان أول من تناول تلك العقيدة الجديدة علانية -
حمزة بن علي الزوزاني اللباد ، وقد صاغ الدرزي أصول تلك
العقيدة الجديدة من تعاليم باطنية صاغها في رسالة ، تلاها
في الأزهر مما أثار الناس عليه مما حمله على هجر القاهرة
فلأزها الى جبل لبنان » .

وقد صاغ أحمد حميد الدين الكرمانى رسالة فى هذا الصدد
قرئت فى الأزهر .

وكان الكرمانى من أبرز فقهاء عصره ، نال شهرة سامة فى إيران
والعراق قبل قدومه الى مصر ، وكانت رسائله تفتيدا لدى الحامى
فى القداسة .

وأخيرا اغتيل الحاكم سنة ١٠٢١ ، ولقد أتباعه من مصر ، فكانت
منهم طائفة الدروز المنتشرة فى لبنان وسوريا وفلسطين .

وقد امتدت شهرة الحاكم هذا الخليفة النسابه الغربى الأطوار
والشاذ ، لسبب واحد كان له فضله على القاهرة بأقامة - دار الحكمة -
لصق قصره ، لتكون مقرا للدراسات متقدمة ، عام ١٠٠٥ ، كان من أثرها
فى القاهرة الفاطمية ما كان لمتحف الاسكندرية على عهد البطالة . وإلى
جانب ما قامت به دار الحكمة بأعداد الدعاة للمقيدة الفاطمية ، غدت
مقرا ومسمى للدارسين والناهين من طلاب العلم والمعرفة ، وأصبحت
ندا - لبنت الحكمة - فى بغداد ، ومركز العلم والدراسات العليا فى
الأندلس .

وقد ازدادت حواطها بالنقوش الزاهية ، وأعدت بعض فصولها
لتعليم النساء ، ولم يكلف الطلاب بأى اتفاق بل كانوا على العكس
يزودون بكل ما يحتاجونه من أدوات الدراسة من ورق وأحبار وأقلام .
وكانت من أقسام عديدة لدراسة اللغة ، والفقه ، والشريعة الى جانب
الرياضيات ، والطب ، والتنجيم ، والفلك ، وكانت لها أهميتها الخاصة
لدى الفاطميين ويتم الاتفاق عليها من المنح والهبات التى يقدمها الخليفة ،
يقبل عليها الطلاب ، كما يقبلون على المكتبة وقد زودها الفاطميون بالكتب
والمخطوطات وغير ذلك من المراجع الفريدة ولا نستطيع أن نتبين على وجه
الدقة مدى العلاقة بين هذا المعهد الجديد والأزهر ، فبقدر ما زود الحاكم
دار الحكمة بالمراجع والمنسوخات المدينة ، لم يحرم الأزهر منها ،
وكان الأزهر فى الواقع أكثر سساحة من دار الحكمة ، ففى عام ٩٣٣
مثلا ، حينما رأى بعض شيوخ الفاطميين هجر الأزهر ، كان هناك من
لاذ به من الفريق الآخر ، دعامة لحرية البحث ، كما حدث بعد ذلك بفترة
أن أغلقت دار الحكمة حين رأى بعض أنصار المذهب السنى دراسات
فقه الأشعرى المعارض للمذهب الفاطمى ، مما أدى الى إغلاق دار الحكمة
دونهم وبقيت الدراسات الدينية قائمة فى الأزهر بينما بقي من يفتى
دراسة العلم والفلسفة ، وأسرار المقيدة الفاطمية يؤمنون دار الحكمة .

خلفه الحاكم :

عندما اغتيل الحاكم سنة ١٠٢١ م ، خلفه ابنه اسمعيا على كرمى الخلافة ، لأرمسة عشر علما كانت أحلك الأيام في تاريخ مصر حيث ناشتها المجاعة والفوضى ، وخلفه المستنصر حفيد الحاكم ، وكان ابنه لجارية سوداء وحكم من سنة ١٠٣٥ الى ١٠٩٤ (١) ، وطال حكمه وامتد الى أبعد مما امتد اليه حاكم في تاريخ الاسلام ، حل فيها القحط بمصر لنضوب موارد النيل وعصف بها من الجفاف والقحط والمجاعة ، ما لم تشهد من قبل ، وما لا يدانيه ضريب آخر في العالم على امتداد تاريخه ، الا ما حدث في إنجلترا عندما اجتاحتها وليم الفاتح .

وعصف الجوع بالناس ، وحلت الفوضى محل النظام ، فاجتاح الجياع والجنود الخارجون على النظام المنشآت العامة ، وسرقوا محتوياتها ، وكان مما نهبوه محتويات المكتبات من الكتب والنفائس .

وكان مما كتبه - ابو بكر بن ابيك - في هذا الصدد ما يلي :
 « كان الموت يحصد كل يوم بما يقسرب من عشرة آلاف شخص - كما يذكر ديوان الموارث - غني عدد لا يحصى من الأرقاء » كما يقول أيضا : « ان نهائى الفرص والجمعين ، غالوا في أسعار الأقوات مما يفوق طاقة الناس ، وإن الكلاب قد عصف بها الجوع فافترخت البيوت وأكلت الأطفال ، كما سقطت الطيور صرعى الجوع .. ثم يقر بأن الخليفة المستنصر فقد سلطانه ، واختلت ادارته وفست حكومته ووهن حكمه مما حمله على هجر قصره ، فلاذ بالجمع الأزهر ، في صومعة الى يمين المدخل أعلى البوابة ، وظل بها ، حتى جاءه بدو الجمال حاكم عكا وأمير الجيوش ، وقد أبحر بالجنود منها الى مصر لينقل الخليفة ، واستطاع خلال العامين اللاحقين ١٠٧٤ - ١٠٧٥ (٢) - ان يعيد النظام ، فلفى على القواد الآتراك ، وانخفض الخارجين ، وبني حول المدينة سورا جديدا استعان على بنائه بالعمال الأجانب ما زالت بواباته ما بين الشمال والجنوب قائمة حتى الآن شاهدا على فخمتها - هي باب الفتوح ، وباب ذويلة - ويعرف الآن باسم بوابة المتولى - وباب النصر .. ومن المحتمل أن يكون قد تم تجديد الأزهر خلال تلك الفترة » .

(١) ٤٢٧ - ٤٨٧ م .

(٢) ٤٣٧ - ٤٦٨ م .

وتوفي بدر الجمالي سنة ١٠٩٣ م ، وخلفه ابنه في منصبه أميرا للجيش ، ولحق به الخليفة في العام التالي ، ومع ما كان من امتداد حكمه ، فانه كان البداية لانتهيار الدولة وافول الخلافة الفاطمية .

ولم يطل حكم خلفه المستمل لأكثر من خمس سنوات كان فيها مطية للوزير أمير الجيش وصاحب السلطة الحقيقية ، وفي هذه الفترة من الزمن برز حدث جديد كان له اثره البالغ على الأزهر ، وعلى مصر وبقية دول الشرق الأدنى ، ففي سنة ١٠٩٥ عقد البابا أربان الثاني مجلسا في كليرمونت دعا فيه الى تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين ليعود الى أيدي المسيحيين ملازمهم ومهد دعوتهم . وكانت بداية الحرب الصليبية الأولى ، ولم تمض أربع سنوات حتى اجتاحت المدينة المقدسة ألف ومائتا فارس واثنا عشر ألفا من الصليبيين ، وكان ذلك خلال خلافة المستمل ، وقد أخذت الدولة الفاطمية تتهاوى وتتمزق ، وأخذت قلة من الفاطميين جانب أخيه نزار خليفة أولى بها من المستمل ، وكان أن نه عنها حتى الوقت الحاضر طاقتان من الشيعة الاسماعيلية .

وهناك ما يورى بأن الأزهر بقي كما كان ، حفيظا على مكانته العظيمة وأهميته البالغة طوال تلك الحقبة من الزمن ، ففي عام ١٠٩٥ تقريبا ، أقيم حفل احياء ذكرى استشهاد الحسين ، كان على رأسه القاضي الأكبر وأئمة المذهب في الأزهر ، وقبل أن يؤموا مشهد الحسين فحيد الرسول كانوا قد أدوا شعائر مذهبهم ، ومرة أخرى ، قرى على الناس اشعار حكومي بتمويل نفقات المشهد الحسيني ، وقد عرف هؤلاء الذين اخلدوا بفكرة الخليفة المستمل ، فيما بعد باسم - طائفة البهرة - وكان ما جرى من بعد على أيام الخليفة الأمر الذي خلف المستمل عام ١١٠١ ، وحكم حتى عام ١١٣٠ (١) ، أن شعائر الجنائزات لداعي الدعاة كانت تقام في الأزهر ، وفي تلك الفترة أغلقت دار الحكمة الى حين ، وبقي الأزهر المعهد العلمي الأول في هذا العالم ، وفي هذا الوقت أيضا أقيم محراب للصلاة على أجمل صورة من الخشب المنقوش تصب في مواجهة الباب الخلفي للجامع ، ومازال هذا النموذج قائما في المتحف البرمي للفن بالقاهرة .

هذا وان كان حكم الخليفة الحافظ (٢) بداية الوهن الذي حصل بالدولة قبل نهاية حكمه ، الا أنه وان قبض على السلطة بكلتا يديه ، أقام بناء سقيفة جديدة للأزهر ، كما يقول المقرئ فيما يلي :

(١) ١١٠١ م تولى ٤٩٥ هـ و ١١٣٠ م تولى ٥٢٤ هـ .

(٢) حكم الخليفة الحافظ من ١١٣١ - ١١٤٩ م ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ .

« ابتنى الحافظ لدين الله مقصورة رائعة بالقرب من الباب
القرين للجامع - الأزهر - داخل الأعمدة عرفت باسم -
مقصورة فاطمة - أجلا للفاطمة الزهراء - تبدو للنظر وقد
خط عليها : - فليقبلها الله جل جلاله قبولاً حسناً » .

وكانت سقفة رائعة ، أقيمت على أقصى جانب من البهو المفتوح
أمام المحراب الداخلى على صف من الأعمدة ، وقبة على صورة رائفة
وتصميم بديع ومازالت بعض معالمها باقية حتى اليوم رغم كل المتغيرات
منذ عهد الحافظ حتى الآن .

وكان الخلفاء يحتفلون بأعياد الشيعة ، كما يحتفلون بعيد الفطاس
فالحداق حافلة بروادها أيام الأعياد ومنازه للنيل مقصد الشعراء والمغنين
وكل من يتشد بالبهجة والفرح .

وكان الخلفاء يحتفلون بأعياد الشيعة ، كما يحتفلون بعيد الفطاس
وخميس العهد ، وكثيراً ما كان الخليفة يتصدر الموائد التي يقيمها في
البهو الذهبى من قصره على مائدة كبرى تتسع لكل المدعوين .

وفي ليالى الوقود عند بداية ومنتصف شهرى رجب وشعبان تفرغ
الانارة الزاهية مساحة الأزهر ، حيث يؤمه الواعظ بصحبة رفاقه
من الوعاظ يخاطبون الحشود من الناس الذين جاموا لاعلان ولائهم
للخليفة وتحية . فى جو غامر بالبهجة ومواكب حافلة بالمسرة مما يضاف
على الأزهر أهمية بالغة ويملو بمكانته على العوام كمنتجع لآحياء المناسبات
الدينية ، وأيام الماضى العريق الحافل ، وغداً على آثارها المحفل الأثير
للقوس والراسم .

وانها لمشيتة الله سبحانه وتعالى أن يفدو حكم القواطم زاهيا ،
وان شباب عقيدتهم نوع من الهرطقة يأباه الكثيرون . فحملت الجدران
كتابات خطتها الأيدي أن المصمة التى يدعيها الأئمة ليست الا عبثاً
باطلاً .

وكان الخليفة الحافظ الذى أقام تلك المقصورة الرائعة للأزهر ،
قد خلفه وليد صغير ، ثم حفيد لم يتمد الحلم اتسم حكمهما بالعنف ،
والانهيار ، وكان آخر من حكم من الفاطميين العاضد وبدأ حكمه سنة
١١٦٠ - (٥٥٥ هـ) حتى سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وحينما قتل
وزيره كانت البادرة لسياسى لموب يدعى - شاور - انغمس فى مغامرات
شائنة مليئة بالخداع والرياء لمب فيها على الجبلين فى اتصاله بالصليبيين
من ناحية ، والقائد العربى من ناحية أخرى ، أما الصليبي فهو - أمريكند
وأما العربى فهو - نور الدين - وبعد صراعات عديدة احترقت خلالها

منطقة فسيحة من أقدم مناطق القاهرة ، حاول خلالها القائد العربي أن يعيد النظام والأمن وكان بصحبته ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقتل شاور ، وغدا معه وزيرا ، وما أن تم له إعادة الهدوء والنظام سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) حتى توفى عنه فجأة وخلفه على الوزارة ، فرأى نفسه في موقف حرج ، لا لأنه مازال صغيرا على الحكم ، ولكنه رأى نفسه ملزما بخدمة سنيين ، وزيرا للخليفة الفاطمي من ناحية ، وممثلا للخليفة العباسي من ناحية أخرى . وقد التزم بالدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

وأخيرا توفى المعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ولم يخلفه أحد ، فقام صلاح الدين بتغيير الأذان. للصلاة الى الأذان السنني ، وحل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة . لا في الأزهر وحده بل عم المساجد كلها .

وكان من شأن الأزهر ، أن تضاهل فلم يعد كما كان في الحكم الفاطمي ، وبدأ فصل جديد في تاريخ الأزهر .

الدولة الأيوبية

١١٧١ - ١١٩٣	صلاح الدين
١١٩٣ - ١١٩٨	العزیز ، عماد الدين
١١٩٨ - ١١٩٩	المنصور ، محمد
١١٩٩ - ١٢١٨	العالء ، سيف الدين
١٢١٨ - ١٢٣٨	الكامل ، محمد
١٢٣٨ - ١٢٤٠	العالء الثاني
١٢٤٠ - ١٢٤٩	الصالح نجم الدين أيوب
	القديس لويس يثير على دمياط
١٢٤٩ - ١٢٥٠	شجرة الدر
١٢٥٠	توران شاه
١٢٥٠ - ١٢٥٢	الأشرف موسى
	١٢٥٢ طفلا تحت الوصاية

الفصل الثاني : صلاح الدين والدولة الأيوبية

كان عام ١١٧١ بداية ملحضة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى الجنوبي . منذ تمكن القائد الناشئ صلاح الدين من احتوائه والسيطرة عليه فلم تمض أربع سنوات على قدومه ، حتى اعترفت به الخلافة المباسمية سلطانا على مصر والنوبة والشمال الأفريقي ، مع الحجاز وفلسطين وأواسط سوريا ، كانت خلالها مسرحية الحركة الصليبية تلعب دورها في عالم سادته النظام الإقطاعي ونشوة الفروسية الغالبة .

وفي مصر بدأت حركة انشاء المعاهد الجديدة لنشر التعاليم السنية بدلا لهرطقة الفاطميين .

واخذ صلاح الدين الملعب الشافعي أساسا للفرقة في مصر ، وحرم أن تقام صلاة الجمعة في أكثر من مسجد واحد في أية مدينة ، وكان من الر ذلك ما يصفه المقرئزي ، وهو ما لم يقف أثره على الأضر وحده بل لعداه إلى غيره من مساجد القاهرة :

فيقول ما معناه : إن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما إن كانت له السلطة حين قام بتعيين القاضي القضاة وعهد به إلى (القاضي صدر الدين عبد الملك بن دويس) فقام بوضع الأساس الشرعي للفتنة السنية ، والتي بعلم جواز الفتنة غلبت للجمعة في بلدة واحدة كما يقرر الإمام الشافعي في مذهبه ، فأبطل صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وقرر إقامتها في جامع الحاكم بامر الله ، وهو الجامع الحاكم بحجة أنه أوسع رحابا ، واستمر ذلك حوالا مائة عام تالية ، حتى انقضى الظاهر بيبرس - كما يقول المقرئزي .

وحين آل الأمر إلى صلاح الدين وغدا وله الحكم والسلطة ، كان في حاجة إلى المال لتمويل جيشه ، وإيواء اللاجئين ممن جنت عليهم الحرب ، فخلع من صحابه ما ازداد به من حل الفتنة ، كان الحاكم قد زهقه بها وقام ببيعها .

ولا نملك من التفاصيل ما يهدينا الى ما نال الأزهر من عون مالي خلال حكم صلاح الدين ومن خلفه الى ثمانين سنة قالية ، فقد كانت حقبة مثيرة بما حفلت به مصر من أحداث الحرب الصليبية ، ومن المسلم به أن الجامع الأزهر لم يمد يده يغطي بما كان يغطي به من قبيل من مراسم دينية ، كما قطعت عنه المعونات المالية ، ولم يمد شيوخه يحدون ما يقوم بأودهم الا يشق الأنفس ، ودمرت كل مصاليم الفكر الفاطمي من كتب ومخطوطات ، حتى ان مخطوطة - دعائم الاسلام - لم يبق لها من أثر غير نسخة فريدة لازالت باقية في دار الكتب بالقاهرة .

وهناك ما يدل ، على أن الأزهر لم يهجر تماما ، وفيما يرويه المؤرخ الفضل بن أبي الفضل (١) - أن منذئذ رفعت الى أطول مما كانت عليه ، وأن أصبحت من صناعة الخزف ، ودار سك العملة في مصر القديمة كانت تغل ١٠٦٧ من العملة الذهبية سنويا ، ويروى - تريتون (٢) - نقلا عن مؤلف آخر ، أن دارسا يدعى عبد اللطيف ، وقد يكون عبد اللطيف البغدادي ، قوله :

« تعلمت في الأزهر اول ما تعلمت منذ الصباح حتى الساعة الرابعة ، ما يهتمل أن يكون من الحديث ، والفقه ، وعند الظهر اواصل اليوم صناعة العقائد ، الى جانب دراسات اخرى ويحتمل أن يكون ذلك في بيته ، ويعود بعدها الى الأزهر معه ليقابل مجموعة أخرى من الدارسين ، ويمضي في استذكار دروسه بعد ذلك ليلا في بيته ، وكان يتقاضي من صلاح الدين أجره على ذلك ثلاثين دينارا ، شاعها ابنه من بعد الى مائة دينار » .

ويدل ذلك على أن الفصول الخاصة للدراسة لم تكن قاصرة على الأزهر فحسب خلال حكم الأيوبيين ، ولكنها فضلا عن ذلك كانت تلقى التأييد والتشجيع من السلطان ، وفضلا عن ذلك غدا الجامع ملاذا له لهادسته وحرمة لمن يلجأ اليه من الحاج والنسك والمتصوفة ، ممن يؤمنون القاهرة طمعا في كرم صلاح الدين وتقواه .

وقد وحب صلاح الدين أيامه الأخيرة لمحاربة الصليبيين في فلسطين ، فاذا كان قبره القائم في دمشق قريبا من المسجد الأموي . قد غدا شاهدا حيا ، وذكرى باقية لصاحبه ، فان بناء القلعة التي تطل على القاهرة ، وتنسب اليه هي النصب التذكاري الخالد لذكرى باقية .

(١) الفضل بن أبي الفضل ، انظر See Patrologia, Tome, XII, p. 800.

Tristram : Muslim Education, p. 79.

(٢)

وفي غمار تلك الأزمة القائمة ، توفي الملك الصالح بينما كان ابنه وولي عهده توران شاه ، فأخفت سريته أم خليل شجرة الدر خبير وقاته ، وأخذت تدبير الأمور كما لو كان حاضرا خشية أن يؤثر ذلك على الروح المعنوية للجنود ، فلما عاد ، كانت موجة الغزو الصليبي قد انحسرت ووقع الملك لويس أسيرا وسجن في بيت ابن لقمان بالمنصورة .

وكان للمماليك البحرية دورهم البارز في احراز النصر ، فتجبروا وطفوا وطمعوا وقتلوا توران شاه ، وأقاموا مكانه أم خليل شجرة الدر ، وبقيت على الملك - تحكم بوصفها سلطانا - حتى اعتزلت ، وبايعوا - الأشرف موسى - من بيت الملك سلطانا ، وكان صبيا لم يجاوز الحلم - واختاروا عز الدين أيبك التركماني ، من ممالك الملك الصالح قيسا عليه ، فتزوج شجرة الدر ، وسلبها كل سلطة فأمرت مباليكها بقتله ، وقتلها ابنه ، وكانت نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية .

معاهدة العصر الوسيط :

كان أكثر ما شغل صلاح الدين وخلفائه أن يصبح الأزهر مقرا لتعاليم السنة بدلا من تعاليم الفاطميين الشيعة .

ولم تكن تلك هي البداية في منهج التعليم الاسلامي وطرائقه ، وما كانت الغاية في بدء الدعوة الاسلامية الا أن يقوم الحفصاء بتعليم الصبية قراءة القرآن الكريم وحفظه ، وهو ما كان يتم في المساجد ، وبمضي الزمن انشأ ما يعرف بالكتاب للتعليم الأول في غرف أعدت لذلك أو في دور الشيوخ أنفسهم ، أو في المساجد أكثر الأحيان ، حيث يقوم الصبية بنقل آيات القرآن الكريم على لوح من الصفيح ، وما أن يتم لهم حفظها وإدراك فحواها حتى يقوموا بمسح اللوح لكتابة الآية أو الآيات التالية ، ويتكرر ذلك حتى يتسنى لهم حفظ القرآن والالمام بالقراءة والكتابة قبل أن يملفوا عادة الحادية عشرة . وفي بعض هذه الكتابيب ، أو التعليم الأول يدرسون بعض قواعد اللغة والشعر والحساب .

وان كان بعض الصبية ينقطعون عن التعليم للعمل مع آبائهم في الحقل أو في الحرف والصناعات الأخرى التي يستهنونها في سوق العمل .. أو يلحقون بوظيفة حكومية ، أو بخدمة بعض الشيوخ البارزين .

لذا رغب البعض أن يمضي في تعليمه فأنهم عادة ما يلجأون إلى معلم خاص يستقبلهم في بيته ، أو يلتقي بهم في المساجد ، وكانت معظم التعليم والدروس للكبار دون الكتاب الذي يستقبل صفار التلاميذ .

ولم تكن حلقات التعليم في المساجد على مستوى واحد ، فالشيخ المادي يكتفي بحصير يجلس عليه أو على ركوة من الخشب يتحلق حوله القلة من طلابه ، وقد سادت هذه الحلقات طوال العصر الوسيط ، حيث يلتقي وواد الحلقة من الرعاية ما يلقاه الأبناء من آباؤهم ، أما ذوو المكانة من الشيوخ فانهم يتخفون مقعدا مرتفعا من الخشب يستند الى عمود من أعمدة المسجد ، ويعل على طلابه ما يدرس ، يساعده أحيانا عريف أو عريضان ، فإذا كان من الشيوخ البارزين فإن حلقة تتسع للمئات من الرواد ، ينسخون ما يمليه عليهم ، ليصدر من بعد في منسوخة كاملة .

ولم يكن هناك منهج مقرر ، ولكن الطالب يلزم شيخه حتى يلم بما ينشد من علم أو معرفة ، ويسمح الشيخ لطلابه شهادة بإتمام ما درس . ولم يكن لها في الواقع قيمة علمية وإن صيغت في لغة منمقة ، ولم يكن ثمة نظام للتأهيل أو القبول أو الامتحان ، فالطالب حين ينتهي من دراسته يفدو نبت ذاته وقدرته على التحصيل ، ولم تكن ثمة حاجة لإنشاء دور خاصة لتلقي العلم في المراحل المتقدمة ، كما هي بالفسية للتعليم الأول .

وليس ثمة حاجة لتصوير ما يحدث من وبكة أو بلبلة حين يقتل الأذان وحركة الصلن بالندوس والمناقشات الدراسية ، ولم يكن ثمة مناس من اعداد دور خاصة لتلك الدراسات المتقدمة ولنفيها عن الدراسات الأولية الأخرى .

ولول ما أنشئ من إبنية فارغة لعمور العلم مدرسة نيسابور في الربع الأول من القرن الحادي عشر ، ولم تكن دارا للبحث والعسرفة كتلك المعاهد التي أنشئت من بعد في بغداد والقاهرة ، ولا تعدو كونها مدرسة ثانوية لتعليم الدين والدراسات الأدبية والإنسانيات .

وفي سنة ١٠٦٧ أنشأ نظام الملك أبرز وزراء الأتراك السلاجقة مدرسة جامعة في بغداد ، عرفت باسم - المدرسة النظامية - غدت مثالا لما أقيم من مدارس في العالم الاسلامي من بعد ، وقد أنشئت هذه المدارس لمواجهة الفكر الشيعي الهدام ، ونشر تعاليم السنة والفقه السني .

وكان بعض هذه المدارس ، ضيقا لم يكتل له بناء ، بينما كانت الأخرى فسيحة ساقطة البناء رفيعة الذوى ، ألحقت بها أجنحة لإقامة الطلاب ، وقاعات للمحاضرات وفصول للتعليم ، ومكتبات عامرة بالكتب والمنسوخات ، ولم يكن للنساء مكان فيها ، وتقام الصلوات الخمس في أوقاتها من الفجر حتى العصر ، ولعل الحياة فيها كانت أقرب ما تكون إلى حياة القرية .

ولما كان المنهج الفاطمي منهجاً يبنى العديد من مذاهب الشيعة ، فقد أنشئت هذه المدارس للتصدي لها ومقاومتها . ولم تكن ثمة حاجة لإقامتها في مصر خلال العصر الفاطمي ، فلما أسس صلاح الدين بالسلطة ، وكان ما يرمى إليه القضاء على كل نائمة للشيعة بدت الحاجة إليها لإحلال المنهج السني محل المنهج الشيعي فأقام معهداً بالقرب من مقام الإمام الشافعي جنوب القلعة ، وأخرى بالقرب من مشهد الحسين عبر الطريق من الأزهر ، كما أنشأ معاهد أخرى في مصر القديمة أو القبطيات .

ومضى خلفاؤه على نهجه فأنشأوا ستة وعشرين معهداً برز منها معهتان هما : المدرسة الكاملية أقامها السلطان الكامل ، وبسماها بسنوات أقام السلطان الصالح معهداً فسيحاً عرف باسم - المدرسة الصالحة -

وكان لإنشاء هذه المعاهد أثر بارز على مكانة الأزهر من ناحيتين أولاهما : أنه فقد مكانته الأولى ، فلما استكمل بناؤه من جديد ، سارت الدراسة فيه على نهج المعاهد الجديدة دون النهج الفاطمي .

ولما كان التعليم هو الغاية الكبرى من إنشاء هذه المعاهد ، وإن هذه المعاهد التي تنتمي إلى العصر الوسيط تختلف تماماً عن مثيلاتها في أوروبا ، فإن علينا أن نشرح مناهج الدراسة فيها ، ولسنا في حاجة لأن نذكر أن العربية وليست اللاتينية كانت لغة الدراسة ، وأن القرآن يخل محل أسفار الكتاب المقدس أساساً للدراسة .

منهج الدراسة في المعاهد

خلال العصر الوسيط :

١ - علوم اللسان العربي والعلوم العقلية :

اللغة - النحو والصرف - البلاغة - الأدب - القراءات - التفسير الحديث - اللغة - علم الكلام .

٢ - العلوم العقلية :

الرياضيات (الفرائض) - المنطق .

وكان تعليم الحساب لضبط أوقات الصلاة ، والعلوم ، وتقسيم الموارث ، أما المنطق فهو الوسيلة للدفاع عن العقيدة وتبريرها .

ولما كانت علوم اللسان العربي ، والعلوم العقلية من أولويات التعليم في الأزهر منذ ذلك الحين فقد تحتل المكان الأول من بينه

ولقيت من عناية بمسلاطين الماليك منذ سبعة قرون ما هي قيمة به ،
وعليها أن نبين ماهية هذه العلوم ، قبل أن نعرض لتاريخ الأزهر خلال
العصر المملوكي :

اللفظة :

إذا كان القرآن قد نزل بلغة قريش التي ينتمي إليها الرسول
صلى الله عليه وسلم فقد وسع لهجات القبائل الأخرى ، وإن غابت كلماته
عنها ، وكان من العسير على الأطفال والمسلمين من غير العرب أن يدركوا
معانيها .

لذلك كان أول ما عني به التعليم الاسلامي ، أن يشرح لغة القرآن ،
وكان أن قام الخليل بن أحمد من أبناء البصرة في القرن الثامن بتصنيف
أول معجم لألفاظ القرآن ، وتوالي بعده العديد من المعاجم العربية
السهلة والمبسطة يسرت فهم معاني القرآن ، واشتقاقات الألفاظ الى جانبه
الاملاء والخط والانشاء و (التأليف) ، وعلمت جميعا من أصول
التعليم الاسلامي .

النحو والصرف :

كان من المسلمين من يجيد العربية الفصحى ، فبدلوا يصنفون
قواعد النحو والصرف ، ولقى ذلك الكثير من الترحيب من فقهاء المسلمين ،
فقد يسر لهم فهم معاني القرآن والألفاظ القرآنية فهما دقيقا ، وكان
الرائد وامام هذا المنحى - سيبيويه المتوفى سنة ٧٩٣م - بكتابه في
قواعد النحو والصرف ، وأقبل على دراسته طلاب الأزهر ليتيسر لهم
فهم معاني القرآن فهما ونطقا دقيقا ، وقراءة اللفظة العربية وكتابتها
دون خطأ .

البيان :

ولم يكتف فقهاء المسلمين بدراسة النحو والصرف فحسب . وحتى
يتيسر لهم فهم معاني القرآن فهما دقيقا فضلا عن النطق الصحيح عند
الوعظ والكتابة الدقيقة الخالية من الخطأ ، وضمو علم البلاغة يتناول
ثلاثة جوانب : المعاني لدقة التعبير ، والبيان لشرح الكلمات شرحا وافيا ،
والتشبيه ، والاستمارة والبديع لضبط النطق وفصاحة الالقاء ، وكان
للبيان أهميتها في الوعظ والخطابة .

الأدب :

ولقى الشعر الجاهلي - مع ما كان من جفوة المسلمين له - اهتماما
بالفا في ميدان الدراسات اللغوية ، حتى يعسر للدارسين الإلمام بالألفاظ

واللغاني والكلمات الواردة في القرآن • دون قحواها ، كما كان للشعر أهميته البالغة من الناحية السياسية ، فحفل به سادة الحكم وامراؤه ، مديحا وتكريما ، وغدا وله مكانته في التصور والمخاطب والأسواق الإسلامية •

وكان من الشعر ما تناول الحكمة والفلسفة ، والفزل والخبريات ، أو المدح والهجاء ، مع ما صدر من دواوين الشعراء •

وفي بواكير الإسلام كان النثر أداة الإدارة والمعاملات العامة وإن كان من ولع بعض الحكام بالأساليب الأدبية ما حملهم على تصنيف بعض الرسائل التي لا تختلف في أسلوبها ونهجها عما ينشر من مقالات ورسائل •

هذا الى ما كان من كتابات نثرية تناولت العديد من الأساطير ، كما هي في كتاب - كليله ودمنة - و - ألف ليلة وليلة - حازت شهرة واسعة في الشرق وفي الغرب على السواء •

وابان هذا العصر الوسيط صدر كتاب - الأغاني للأصفهاني - ومقامات الحريري ، وغدا للنثر مكانته كما هي للشعر على السواء •

وحتى يتسنى لنا استيعاب الدراسات اللغوية لا بد وأن نضيف هذه الحقيقة وهي أن الشعر والنثر قد أصبحا على حد سواء من الدراسات المقررة في المناهج ، حتى وإن كان بعضها مما يتناول الخبريات ، والفزليات مما لا يتفق والدين •

القراءات :

إن أول ما يجب على رجال الدين المسلمين أن يحفظ القرآن قراءة ونطقا على أكمل صورة ، وليس ذلك بالأمر اليسير ، وذلك لتقارب الحروف كتابة في العربية فضلا عن التشكيل ، مما حمل الخليفة القاهر العباسي ووزيره ابن مقله وابن عيسى على وضع ما عرف بالقراءات السبع وأصول تجويد القرآن فلا يختلف على قراءته أو تجويده آخر ، وكان لتجويد القرآن أهميته ليستمع اليه أكبر عدد ، ومما يذكره السيوطي أن القرآن احتل مكانة سامقة في الأزهر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر • وقد ولد في مصر حينذاك سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) علي بن يوسف شيخ القراء ، وقد درس القراءات على أربابها ، وقام عليها في الأزهر ليؤم حلقاته أكبر عدد من الدارسين ، وقد توفي في الشهر الأخير من سنة ٧١٥ هـ (١٣١٣ م) •

وكان الامام عثمان بن عبد الرحمن يؤم المصلين في الأزهر فسموا القرآن الى القمة من التجويد وحسن الأداء يستمع اليه حشود المصلين

والمستعين عند تلاوته كأنهم رجل واحد حتى قيل أن الجن كانت تستمع إليه ، وبقى يتسلم القصة حتى وفاته في الثمانين من عمره سنة ٨٨٠ هـ (١٤٣٦ م) .

واقبل العميان من الصبية على حفظ القرآن وتجويده واخذوا يتلونه في البيوت وفي المناسبات العامة .

التفسير :

كانت الدراسات اللغوية عوناً للتصريح في فهم مفردات القرآن وكلماته ، إلا أنهم لم يلقوا بالآلة إلى أهمية المناسبات التي نزل بها الوحي ، ولم يرض الزمن طويلاً حتى بدأت الدراسات لمعرفة أين ومتى كانت هذه المناسبات .

وبمرور الوقت صدرت دراسات عديدة في شرح اللغة وتسجيل الأحاديث وتبويبها وروايتها وتفسير القرآن ، كان بعضها مختصراً ويسيراً على القارئ ، والأخرى مسهية مليئة بالاصطلاحات ، الصعبة كما كان - البحر المحيط - لأبي حيان الغرناطي .

وبدا ما كان من أهمية تأويل القرآن وتفسيره عندما أخذ الطامعون والافاقون يفسرونه وفق هواهم وأطماعهم ، ففي بغداد كان هناك من المفكرين من لجأ في الإلحاد ، وفي مصر ، اتخذ منه الفاطميون أداة لاحتكام سيطرتهم وتبرير حكمهم ، ومن الآيات ما يفسرها البعض على هواهم ، كآية :

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أولئك هم المهتدون » (١)

ولما كان القرآن أساس التشريع فإن من ينشدون الزور يتخلون من تفسيرهم للقرآن ما يوافق هواهم وغايتهم ، وأخيراً وليس آخراً أن الربانيين ، أو رجال اللاهوت نزحوا إلى التأويل صنداً لمتقدماتهم ، وكان ما شاب ذلك العصر الوسيط من تاريخ الإسلام من تفسير للقرآن يجانب الصواب .

ولم يكن غريباً أن تضم مكتبة الأزهر ما يروي على خمسة آلاف كتاب ، إلى جانب العديد من الدراسات والمناهج في هذا الموضوع المهم .

الحديث :

عندما يتسنى لصبي نابه أن يحفظ القرآن ولما يبلغ العاشرة من عمره ، فإنه لا يجد فيه ما يفى بحل مشكلات حياته الخاصة ، فقد نزل عليه - عليه الصلاة والسلام - الوحي في إطار من القيم الروحية ، أما ما كان من أحاديثه بعيدا عن الوحي ، فليس من التنزيل .

إلا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان أدنى من غيره بتفسير ما أوحى إليه ، وإن تكون أحاديثه النبوية تنمى لما أوحى إليه من التنزيل الكريم ، وكان كل ما حدث به أو سلكه من فعل أو قول في المرتبة الثانية من الأهمية في شريعة الإسلام بعد القرآن الكريم ، وكانت دراسة ما نطق به ، أو استنته ، ما عرف - بعلم الحديث - وسرعان ما أصبح من الدراسات المهمة في النهج الإسلامي .

وإن كان الفاطميون ، وغيرهم من الشيعة ، سلموا من الأحاديث بما ورد على لسان النبي نفسه وقرايته ، وهو ما كان من السنة حين سلموا بالتالي بما روى عن الرسول وصحابه ، من أقوال أو مآثورات ، أو ذكريات سواء أكان الراوية رجلا أم امرأة أصلا ، أو تواتر عنه جيلا بعد جيل .

وقد قسم الرواة الأحاديث الى نوعيتين : الاسناد في سلسلة من المحدثين واحدا بعد الآخر مع تماقب الأجيال ، والمثن وهو ما كان صحيحا من قول أو مآثور . ثم تدوينه في مثابة ودراسة وإعية دقيقة لسلسلة الرواة واحدا بعد الآخر وما هم عليه من أمانة وصدق ، وقدرة على التذكر والنقل ، ويصور ما يلى ما كان من رواية الحديث :

« نقل أحمد بن حنبل عن أبي معاوية ، قوله : أن داود بن هند نقل عن أبي حنبل بن أبي الأسود عن أبي دهمر وقد روى أن حوارى الله أنعم الله عليه ورضي عنه أنه قال : إذا غضب منكم أحد وهو واقف فدعوه للجلوس ، فلعله بهذا إذا جلس » .

واستكمالا للتطبيق كان الخونة واللغون من كل قبيل يتخذون من الأحاديث أداة لنزواتهم ومآربهم ، وقضاياهم ومواربتهم ولغوهم وتفسيراتهم ، وأطماعهم السياسية ، وينسبونها الى النبي ، ولم يقفوا عند تحوير الأحاديث ، بل اخترعوا من عندياتهم ، وقضاء على هذا الاذك .
اتفق شيوخ السنة على صحة الاسناد الى ستة من المحدثين هم : البخاري (٨١٠ - ٨٧٠) - مسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٨٧٥ - أبو داود المتوفى سنة ٨٨٨ ، الترمذي المتوفى سنة ٨٩٢ ، ابن ماجه ، المتوفى سنة ٨٨٦ ، والنسائي المتوفى سنة ٩١٥ .

ومن بين هؤلاء الستة ، كان اثنان اتفق على أنهما مرجع صحيح .
اولهما ما جمعه البخارى ، وقد ساج فى الأرض ستة عشر عاما وراء جمع
الأحاديث واجتمع له منها ما يقرب من ٧٥٠٠ حديث من بين نصف مليون،
وغدا لها من القداسة حتى كان يقرأ فى الأزهر تيركا عند الملمات .

وثانيهما ما جمعه مسلم بن الحجاج ودعى باسم صحيح مسلم .

وغدت هذه الخلاصة من الأحاديث المختارة استكمالا لما جاء فى
القرآن من تعاليم الدين والسلوك الدنيوى ، بداية من اقامة الحدود حتى
السواك .

ويذهب بعض شيوخ العصر الى التشكيك فى صحة هذا الحشد من
الأحاديث فى صحيح البخارى ، وهل هي جميعا مما يؤثر عن النبي
والصحابية . وان ذهب الايمان بها فى العصر الوسيط الى حد القداسة
حتى غمت لدى المؤمنين نهجا للسلوك والعبادات . وغدا البخارى محفلا
لدراسات فسيحة ، حتى كانت دراسته تستوعب مائتين وعشرة دروس
خلال عامين من الدراسة الشاقة المسيرة ، طالما كانت الضرورة تلح الحاحا
شديدا بالرجوع الى الحديث فى الدراسات الدينية ، اللاهوتية والشرعية .

الفقه :

يقوم التشريع الاسلامى على ما جاء به القرآن الكريم خلال
القرن السابع فى الجزيرة العربية ، حتى اذا امتد المسلمون فوسع ملكهم
امبراطورية فسيحة تضم العديد من الشعوب والأجناس ، وما كان بينها
من علاقات تجارية واقتصادية فكانت ضرورة الاحتكام الى القرآن غاية
ملحة ، والى ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من اقوال وأفعال .
وغدت الشريعة نهجا للحكم والعلاقات العامة . وتستمد أصولها من الفقه ،
وهو القانون نصا ، وأصول الفقه ومعنى التشريع وهو ما يقابل التشريع
عند الفريسيين .

وكانت هذه الدراسات خلال حكم الفاطميين ، تقوم وفقا للنهج
الشيعى ، فلما أعيد تجديد الأزهر خلال العصر المملوكى ، حلت التعاليم
السنية محل التعاليم الشيعية وكانت هناك أربعة مذاهب يقوم على
تدريسها المعاهد الكبرى وعلى رأسها الأزهر أما المعاهد الصغرى فكانت
تكتفى بمذهب أو مذهبين للدراسة .

ومذاهب السنة الأربعة :

١ - أجاز حنيفة النعمان ، وهو غير سميه الذى قام على شرح
المذهب الشيعى ، نشأ فى الكوفة ودفن ببغداد سنة ٧٦٧ ، بدأ بالكلام

ثم انتقل الى الفقه وروى عن التابعين وتلاميذهم في العراق والحجاز ، ومنهجه
الأخذ بالكتاب والسنة وفتاوى الصنعاية ، ثم بالقياس والاستحسان
والعرف ، وأصبح مذهبه المذهب الذي أخذت به الدولة العباسية والدولة
العثمانية ومصر .

٢ - مالك بن أنس عاش في المدينة حوالي عام ٧١٥ الى ٧٩٥ م ،
وكان أقرب الى النهج الواقعي ، يتحرى ويدقق في الرواية ، وله كتاب -
الموطأ - جمع فيه كل ما صح عنه من أحاديث النبي (صلى الله عليه
وسلم) وانتشر مذهبه في مصر والشمال الأفريقي والأندلس ، وبعض
بلدان الشرق ، وعاش آخر سنه في مصر ، وما زال قبره مزارا كبيرا (١٠) .

٣ - محمد بن أدريس الشافعي ولد بفترة سنة ٧٦٧ وتوفي بالقاهرة
سنة ٨٢٠ وقضى أغلب سني عمره في بغداد على عصر هارون الرشيد ،
ومناهجه في الاستقراء الكتاب والسنة والقياس والاجماع .

٤ - ورايع هؤلاء الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل - ٧٨٠ - ٨٥٥ -
نشأ يتيما ، ولكنه كان عيوفا ، شغل بجمع الحديث * في العراق والشام
والحجاز واليمن ، وطلب الفقه ولم يترك الحديث ، وكان اماما فيهما ،
وعذب حين تصدى لخلفاء بغداد ولم يشايهم في القول بخلق القرآن ،
رفض عطاء الخلفاء ، رغم حاجته ، ويقوم مذهبه على الكتاب والسنة وأقوال
الصنعاية والتابعين والقياس عند الضرورة ، وله كتاب - المسند - في
الحديث يأخذ الوهابيون في نجد بمذهبه .

وليس ثمة تباين كبير بين ما ذهب اليه هو والأئمة فكان من اليسير
على طالب نابه أن يلم بها جميعا دون عنق في وقت واحد ، وإن كان
المكوف على دراسة مذهب واحد منها دراسة وافية دقيقة يحتاج الى
سنوات عديدة ، فإن الكثيرين من طلاب الأزهر ارتضوا هذا السبيل الشاق
أملا في أن يصبح شيخا أثريا أو طعما في أن يتولى منصب القضاء
أو الافتاء .

وكان مما سادت دراسته في الأزهر خلال هذا العصر الوسيط
تلك الدراسة الموسوعية الشاملة للمشرية لكل ما يشور في الحياة من
طقوس كالطهارة والصلاة ، والصدقات والحج والزواج ، والطلاق
والوارث ، والتجارة ، والقضاء ، والتجديف ، وحلف اليمين ، والشهادة ،
ومعاملة الأرقاء والطعام والشراب ، والعراك ، والأخلاقيات ، واللباس ،
وما عدا ذلك من الأساسيات ، فلم تكن دراسة الشرية تقف عند التنظير
فحسب بل تصورها الى كل سلوك ونهج في الحياة في طابعها الواقعي .

(*) جاء في المصادر أن موته كان في المدينة ، وأن قبره في البقيع .

وفي هذا العصر الوسيط كان الشاب الناضج يستطيع أن يجد عملاً في ميدان من ميادين ، فلما التحق بالخيمة العسكرية ، أو سلك سبيله إلى الضيافة ، وأصبح الأزهر مركزاً أهلاً لدراسة الشريعة ، وكان الرمي المنشود لكل دارس أن يلتحق بوظيفة مرموقة في القضاء بين الناس حيث يعيش .

الكلام :

لم يمض وقت طويل على المبعث ونزول القرآن وحيا من عند الله حتى لج بعض فقهاء المسلمين في متاهات اللاهوت ، والحديث عن حرية الإرادة ، وما قبل المبعث ، والثواب والعقاب والجنة والنار ، والخلق وما قبل الخلق ، والجبر والاختيار ، وخلق القرآن ، والنسك والتشكف وغير ذلك مما شغل عقول رجال الدين .

وقد وقف الخليفة المأمون وقد امتد حكمه في حاضرتة بغداد من سنة ٨١٣ الى سنة ٨٣٣ م ، مؤيداً لاتجاهين ، أولهما : الأخذ بالمسلم الاغريقي فكان نواة للاتجاه العقل في التفكير ، وثانيهما : ما خاض فيه المعتزلة حين استهوتهم فلسفة الاغريق في الجدل والحوار تأييداً لمذهبهم ، مما أثار ثائرة المحافظين من رجال الدين لقولهم بحرية الإرادة ، والایمان الصريح القائم على حدى المنطق ، فليس لله أن يكتب على الانسان الخطيئة ثم يعاقبه عليها ، ولكن العقاب يقع ما أوتى حرية الإرادة والاختيار فعدا عليها ، ثم ما كان من القول بخلق القرآن ، على عهد الخليفة المأمون ، وكانت له الخلافة سنة ٨١٣ الى سنة ٨٣٣ م (١٩٨ - ٢١٨ هـ) وكان محباً للعلم ، فاحياً معالم الفكر الاغريقي ، والاتجاه العقل في البحث والاستقراء ، واتخذ جانب المعتزلة في القول بسلطان العقل في معرفة الشر والخير مما أثار عليهم غضب المحافظين في القول بوحدة الله ذاتا وصفات ، والقول بالعدل وخلق القرآن ، ولم يسبق لله أن تقضى على انسان مسبقاً بالخطيئة ثم يعاقبه عليها بالنار ويثس القرار ، فقد زين الله للانسان بحرية الإرادة ، فاذا أخطأ فعليه وزره ، ثم ان القرآن كلام الله ، لم يكن له ثمة وجود قبل أن يوحى به .

وكان من أثر هذا الخلاف بين المحافظين والمجددين أن شاب هذا الاحساس المضى بغداد طوال نصف قرن نال أو يزيد ، حتى جاءه - أبو الحسن علي بن أبي موسى الأشعري - بفكر تقبله أكثر الناس وارتضوه ، امتدت حياته ما بين سنة ٨٧٤ - حتى سنة ٩٣٦ . (وفي قول آخر من سنة ٨٧٣ الى سنة ٩٤١) قضى أيامه الأولى في البصرة ، وأخذ منهج المعتزلة في الكلام ، حتى اتخذ منهج الوسيط بين

المتزلة والمخالفين لهم ، مما يتناول كما يعرف باللغة العربية - باسم -
الكلام ، أو التوحيد ، أو أصول الدين .

وعندما سادت دراسة اللاهوت خلال هذا العصر الوسيط من تاريخ
الإسلام ، بليت صورة جديدة من التفكير الديني ، غدا وله مكانته من
بعد . وهو الحركة الصوفية - أو التصوف - اتخذت في البداية صورة
من الزهادة البالغة ، ويمرور الوقت شابتها مراسم اتسمت بالفوضى ،
والتشعب والصلة الأليفة بالله . ولما كانت هذه الحركة الى حد ما نوعا
من رد الفعل على ما شاب الفكر التقليدي من عقم وما عصفت بالروح من
جذب ، لم يكن غريبا ، أو ما يثير الدهشة أن يقف منها الفقهاء موقفا
ادا حتى ظهر فقيه عالم أضفى عليها نوعا من التوقير هذا الفقيه العالم
هو الغزالي .

ولد أبو حامد محمد الغزالي في طقوس سنة ١٠٥٨ م (٤٥٠ هـ)
حين كان للسلاجقة الإمرة في الدولة العباسية ، والصليبيون ينشون
أطرافها ، درس العلوم الإسلامية والفلسفة ، وعمل أستاذا بالمدرسة
النظامية ، وشهد إقامتها في بغداد أيام طفولته ، وناشبه زهد صرفه الى
التجوال بحثا عن الحقيقة ، ويقول في كتابه - المنقذ من الضلال - انه
غادر بغداد الى الشام ، ثم مكة ، وعرج على الشام بعد أن بارح مكة ،
وأقام في الشام عشر سنوات انقطع فيها للعبادة زاهدا ناسكا ، وعاد الى
التدريس سنة ١١٠٥ ، في نيسابور ، وبعد سست سنين وقد بلغ
الثالثة والخمسين من عمره فارق الحياة ، بعد حياة زاخرة كتب خلالها
أعظم ما كان وما كتب في هذا العصر الوسيط من كتب في العالم بأسره .

وقد أضفى الغزالي على الصوفية والتصوف نوعا من التوقير والاكبار
لم يتسن لها من قبل أو بعد ، وفي كتابه - الاحياء - تناول بالبحث العلم
وقواعد العقائد وأحوال المعيشة وآداب الاجتماع ورياضة النفس
وعجائب القلب ، ومن تعاليم الصوفية عرض للتوبة والمحبة والصبر .
كما عقد الصلة بالله وبالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأضفى على الفكر
عامة خلال القرن الحادى عشر حيوية وقدرة ، وغدت تعاليمه الصوفية من
برامج الدراسة في الأزهر وغيره من المعاهد الأخرى لما حوته من مثل عليا
روحية وعقلية وفلسفية الى جانب دراساته الموسوعية ، تستمت بالفكر
الإسلامي القمة في دراسات العصر .

ومع ما كان من دراسات عديدة وفكر متجدد خسلال تلك الفترة
فقد بقيت دراسات الأشعرى والغزالي طلبة الدارسين لمن ينشدون العمل
في سلك التدريس في المعاهد الدينية وأئمة المساجد ، وطلاب الشريعة
والفقه بل وفي وظائف الحكومة ، فالدين والعمل صنوان لايفترقان في
الحكومة الإسلامية .

العلوم العقلية :

عندما اتخذ الأشعري من علم المنطق أداة للفتاوة الملاحدة ، أصبح المنطق - من المقررات الدراسية في المعاهد ، وإن كان المنطق أصلاً مما أخذ المسلمون عن الإغريق - كما أصبح علم الحساب بدوره من المقررات الدراسية ، طالما كان ضرورة ملحة لتقسيم الموارث ، وتحديد مواقيت الصلاة والصوم .

وإن كانت بعض المعاهد قد فتحت أبوابها لدراسة الطب ، كما كان في المدرسة المستنصرية ببغداد ، والمدرسة الناصرية في القاهرة ، فإن صناعة الدواء كقاعدة عامة كانت تتم في المستشفيات .

وحين اتسعت دائرة البناء في بعض الأحيان ، وساد الفكر الحر وحرية التعبير فتحت بعض المعاهد أبوابها للدراسة للناهين من الطلاب لدراسة الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات العليا ، وكان الفكر خلال هذا العصر الوسيط قد أخذ يتحرر من أقانيمه فراجت دراسة التنجيم والسحر والشعوذة العلمية كتحويل المسادن إلى ذهب ، فإذا لم يكن لها مكان في المعاهد القائمة لجأ الدارسون إلى أصحابها يأخذونها عنهم في بيوتهم ، إذ لم تكن مما يتقبله الفقهاء ورجال الدين .

وكل ما أنشده من هذا التقديم ، أن يجد الغربيون ممن لم يتسن لهم الاثام بالدراسات الإسلامية ودور الأزهر فيها ، فمنذ تم تجديد الأزهر خلال العصر المملوكي ، بدأ دوره الأثري في تاريخه الجديد ، رغم ما نأش هذا العصر المملوكي من مجاعات وحروب ، ومما كان من زلازل وأوبئة .

سلاطين الماليك

الماليك البحرية

١٢٥٧ - ١٢٥٠	أبيك
١٢٥٩ - ١٢٥٧	نور الدين علي
١٢٦٠ - ١٢٥٩	قطز
١٢٦٠ - ١٢٧٧ - تجديد الأثر	بيبرس
١٢٦٦	
١٢٧٧ - ١٢٧٩	أبناء بيبرس
١٢٧٩ - ١٢٩٠	قلاوون
١٢٩٣ - ١٢٩٠	الأشرف خليل
١٢٩٣ - ١٣٤٠	الناصر
١٢٩٤ - ١٢٩٦	ضياح الوراثة كتبها
١٣٠٨ - ١٣٠٩	بيبرس الثاني
١٣٤٠ - ١٣٦١ - أبو بكر كجوك - الكامل أحمد اسماعيل - المظفر حاجي شعبان - الصالح حسن	أبناء الناصر
١٣٦١ - ١٣٨٢	أحفاد وكبار أحفاد الناصر
الماليك البرجية	
١٣٨٢ - ١٣٩٨	الظاهر سيف الدين برقوق
١٣٩٠ - ١٣٨٩	خلو العرش : الحاجي صالح
١٣٩٨ - ١٤١٢	الناصر فرج
١٤٠٥ - ١٤٠٦	خلو العرش - المنصور
١٤١٢	الخليفة المستعين

المؤيد شيخ	١٤١٢ - ١٤٢١ : ورثة المؤيد الصغير والتتار
برمسيبای	١٤٢٢ - ١٤٣٨ : أبناء برمسيبای ١٤٣٨
جقق	١٤٣٨ - ١٤٥٣ : أبناء جقق ١٢٥٣
اينال	١٤٥٣ - ١٤٦٠ : ابن اينال ١٤٦٠ - ١٤٦١
خشقتم	١٤٦١ - ١٤٦٧
يلبای	١٤٦٧
تيمور بفا	١٤٦٧ - ١٤٦٨
قايتبساى	١٤٦٨ - ١٤٩٥ : تجديد الأزهر
الناصر محمد	١٤٩٥ - ١٤٩٨
الظاهر قنصوه	١٤٩٨ - ١٤٩٩
جنبلاط	١٤٩٩ - ١٥٠٠
قنصوه الفورى	١٥٠٠ - ١٥١٦
الأشرف طومان باى	١٥١٦ - ١٥١٧

الفصل الثالث : سلاطين المالكة .

تجديد الأزهر :

فى حديثنا عن خلفاء صلاح الدين ذكرنا أن السلطان الصالح بنى قصرا جديدا فى جزيرة على النيل ، ولم تكن له ثقة برعاياه المصريين الناقمين ، فاتخذ من أجلب الآسيويين حرسا لحمايته وحماية ملكه ، وأسكنهم الى جواره ، فعرفوا باسم - المالك البحرية ، وما أن توفي حتى استبدلوا بالسلطة ودان لهم الأمر بعد دورهم البارز فى لقاء الصليبيين حين أغاروا على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع ، أو القديس لويس - كما عسرف من بعد - فاغتالوا الوديث الشرعى للعرش ، وأقاموا عليه أرملة الملك الصالح - شجرة الدر - وتزوجت زعيمهم عز الدين أيبك ، فاتخذ لنفسه لقب السلطان ، وكانت بداية حكم المالك وقد لا يعنينا فى تاريخنا للأزهر أن نعرض لما كان من أحداث انتهت بزوال المولة الأيوبية وقيام دولة المالك البحرية - فاستمد الأزهر مكانته على أيديهم وكانت بداية حقبة جديدة من تاريخه الحافل .

وأول ما كان ما نبط به من تجديد اللغة العربية وحياء تراثها ، ولم يكن للمالك دراية فقد كانوا يتكلمون لهجة من لهجات اللغة التركية ، وقد جلبوا من قبائل أواسط آسيا فتية صفارا ، وكانت هذه القبائل تنساح فيما يعرف الآن بجنوب روسيا ، ليكونوا جنودا وتكون الحرب مهنتهم ، فأقاموا فى معسكرات التدريب ليكونوا فرسانا محاربين ، وكان ولاؤهم لسادتهم ومالكهم ، وكل مايرمون اليه أن تكون فروسياتهم جديدة بالاكبار لتضفى على حياتهم مجد الحياة .

وقد نالوا من التعليم ما يمكنهم من القراءة والكتابة فيما يجب أن يلموا به من تعاليم الاسلام ، ولم يكن ذلك يكاف لممارسة القرآن وقرآته .

ولو لم يتم الأزهر والمعاهد المثيلة الأخرى بتحفيظ القرآن والحفاظ على اللغة العربية لكان الأمل فى الحفاظ عليها ضئيلا .

كما اضطلع الأزهر والكتاتيب الملحقة بالمعاهد الدينية بالحفاظ على الشريعة وتوقيعها ، فالمملوكى بطبمه فارس مشاهير ، يلوذ بالقوة فى

وأصبح عامة الناس وهم يعانون الفقر والمسغبة ويصف بهم الجهل ضحايا التنصب والخرافة ، ويقدر ما كان اهتمام الحكام بإقامة المساجد والمعاهد الدينية في المدن ، يقدر ما كان اهتمامهم للتعليم وإقامة المعاهد في القرى والريف النائي ، وإن حفلت القاهرة بالخرافة والتنصب ولقيت الطرق الصوفية الضالة بكل ما حفلت به من خرافات وأباطيل تأييد المالك وتشجيعهم ، وكان على الفقهاء وشيوخ الدين النابهين أن يتصدوا لهذه الظاهرة من الأباطيل ، وأن يعيدوا للشريعة الإسلامية مكانتها وجلالها لدى الناس .

وأصبحت الحاجة ماسة إلى أحياء تعاليم الإسلام وسنة رسوله العظيم وهو ما اضطلع به الأزهر من جديد بعد أن عزف عنه صلاح الدين منذ أصبح ملأذا لتعاليم الشيعة على عصر الفاطميين ، مما سبقت الإشارة إليه .

ويعد السلطان بيبرس صاحب الفضل الأول في تجديد الأزهر (٢)، وقد ولد في عام ما ، قيل هو ١٢٢٨ ، وشب بين القبائل الرعوية التي تقع إلى الجنوب من روسيا الحالية ، وبيع لتاجر من تجار الرقيق في - سيواس - ومنها إلى سوق الرقيق في سوريا ، وقل الطلب على ابتاعه لضعف إحدى عينيه ، فلما نقل إلى سوق حماه ، ابتاعه مملوكي ، وضمه إلى ممالكه حيث تمرس بالفروسية وعدة الحرب ، حتى إذا بلغ الثامنة عشرة انتقل إلى خدمة السلطان الصالح نجم الدين الأيوبي فضمه إلى حرس قصره ، وفي سنة ١٢٤٩ ، عندما أغار الملك لويس التاسع الفرنسي على مصر ، وهاجم دمياط ، كان على قيادة الفرسان الذين قلبوا الهزيمة إلى نصر ، ووقوع لويس أسيرا مما أدى إلى نهاية الدولة الأيوبية ، وبداية حكم المماليك ، وانتصارهم الباهر على التتار في معركة - عين جالوت - سنة ١٢٦٠ (٦٥٨ هـ) .

ولم يكن قطز على وفاق مع بيبرس ، وكانت نهاية قطز بعد أن اغتاله بيبرس ، ونادى بنفسه سلطانا على مصر ، وامتد حكمه من سنة ١٢٦٠ إلى سنة ١٢٧٧ م (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) فكان أعظم وبرز سلاطين المماليك البحرية ، بدأ بتنظيم الدولة حكما وإدارة ، وفي بواكير حكمه قام بتجديد العديد من الأبنية القديمة ومنها الأزهر ، حين استجاب إلى مشورة أحد أمرائه ، وكان أقربهم إليه ، وأولاهم بثقته ، فكان - كما يقول - ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ينبيه على الحكم عند غيابه عن مصر ، في حروبه بعيدا عنها ، ويدعى هذا الأمر ، عز الدين أيمن الحلبي ، وكان قد أقام قصره المجاور للأزهر من الجهة الغربية البحرية ، وأمل أن يعود الأزهر إلى تسنم

مكائنه القديمة ، فتحدث الى بيبرس في اصلاح مبنى الأزهر ، ولقى منه استجابة طيبة ، وأمدّه بأموال وفيرة ، الى جانب ما تبرع به أيدير من ماله الخاص زلّقى الى الله سبحانه وتعالى وشرع في ترميمه ترميما كاملا بعدما ناله من احوال بعد نهاية الدولة الفاطمية ، ويقول المقرئى : ان أيدير شرع في تنفيذ عمليات الترميم التى شملت أركان الجامع وسقوفه وجدرانه وسائر أركانه ، كسبا أمر بتبليط أرضه وفرشها بالحصر .

وما لبث أيدير أن حصل على قرار شرعى بإقامة صلاة الجمعة فى المسجد الأزهر ، وكان الأيوبيون ، كما سبق القول - قد حالوا دون اقامتها بالأزهر استنادا الى ما أخذ به الشافعية فى اقامة صلاة الجمعة فى مسجد واحد فى مدينة واحدة واختاروا لاقامتها مسجد الحاكم دون الأزهر فى القاهرة .

ولما كان بيبرس قد اختار المذهب الحنفى ، وهو مذهب أكثر مرونة من غيره من المذاهب الأخرى ، كان من اليسير على أيدير أن يحصل على قرار رسمى باقامتها فى الأزهر . وكان ما أشعار اليه المقرئى بقوله : انه فى يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع أول سنة ٦٦٥ هـ ، (١٧ ديسمبر ١٢٦٦ م) ، أما المتفضل بن أبى الفضائل ، فيسجل : انه خلال سنة ستمائة وخمس وستين :

« قرر السلطان أن تكون صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وكان قد اتخذ مكانا لأداء الصلوات الخمس من قبل »
« وإن كان بعض العلماء قد اتخلوا موقفا معارضا ، وكان قرار السلطان فى الثامن عشر من ربيع الآخر من تلك السنة .

وقبل خمسة أيام من تقرير صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، أقام بيبرس منبرا جديدا من الخشب الى جانب المحراب وإن لم يتسن له حضور الحفل بافتتاحه ، فقد أمدّه بهبة مالية ، وأعاد اليه ما كان موقفا عليه من محابس .

ويبدو أن أيدير قد كلف بمهمة خارج مصر ، أو توفي قبل أن يكتمل تجديد الأزهر ، فقام على تكليفه أحد المسئولين يدعى - بيليك - بدر الدين بن عبد الله الخازندار ، وكان نائبا للسلطان وقائما على خزائنه ، فأقام - مقصورة ، لدراسة المذهب الشافعى ، ونمى كلمة - مقصورة - باللغة العربية - الفصول أو الجناح الممد للتدريس ، ويبدو أن بيليك قد أضاف الى ما أقامه أيدير مقصورة جديدة ، أو أكمل ما لم يكمله سلفه .

وقد زود الأزهر حينذاك بما يحتاجه من نفقة ، واسترد نائب السلطان للجامع الأزهر الكثير من الأوقاف المجرسة عليه ، والتي اغتصبت من قبل خلال الحكم الأيوبي ، للانفاق على الطلاب والفقهاء القائمين على تدريس الشريعة ، والقراءات السبع المتفق عليها ، واستقبل الأزهر مرة أخرى الطلاب لدراسات منظمة لقراءة القرآن وتجويده ، كان يؤمها رجال الحكم ليستمعوا الى دروس التفسير ، وتم تعيين امام للمصلاوات الخمس وصلاة الجمعة ، وفي عام ١٢٦٦ - ١٢٦٧ . صدرت التعليمات بتحريم تدخين الحشيش وتناول الخمر ، واغلاق دور البغاء وحانات الخمر ، وبهذا استعاد الأزهر مكانته كمركز للمبادات ، والدراسات التي يؤمها الطلاب من شتى الأنحاء ، وسمح للنساء بالدراسة .

وقد يبدو مستغربا أن يتم ما أصبح للأزهر من مكانة على يد بيرس الذي بدأ حياته أميا في مراعي القرغيز على حافة روسيا من الجنوب . ولم يتسن لهذا السلطان الفادر في أخريات أيامه أن يؤم الجامع الأزهر ، كما يحب ، عندما شغلته الحروب الصليبية من ناحية وعدوان الأتراك السلاجقة وتهديد المغول من ناحية أخرى ، وإن لم يتسن له أن يشهد نهاية الصليبيين ، فان خلفاء قلاوون والأشرف خليل قد فازوا بأجلاء الصليبيين عن آخر معاقلهم الآسيوية في الشام .

السلطان الناصر وخلفاؤه :

وبعد وفاة الأشرف خليل الابن الأكبر للسلطان العظيم قلاوون حوالي عام ١٢٩٣ (٦٩٣ هـ) خلفه أخوه الأكبر ، الناصر ولم يكن قد جاوز التاسعة من عمره ، ومع ما واجه من متاعب في بداية حكمه من جانب أمراء المالك امتكت سنوات ، الا أنه قد استعاد سلطانه وغدا وله اليد العليا في عاله ، وظل يحكم حتى سنة ١٣٤١ م (٧٤١ هـ) وكانت سنوات حافلة بالتوتر والقلق ، اذ قام المغول المخربون بغزو الشام مرة أخرى واجتاحوا دمشق ، وأعلن شيوخ الأزهر وغيره من المساجد الأخرى - الحرب المقدسة - وانتالت الهبات ، من الأقطاب والتجار والثراء ، وجند الفلاحين والعمال .

ومع ما شغل به من حروب ، فقد تميز بأصالته العلمية ورعايته للتعليم : وأكمل بناء المارستان الذي بدأه أبوه قريبا من المكان الذي أقيمت عليه البوابة الذهبية لقصر الفاطميين الكبير من قبل ، ويصرف باسم المارستان المنصوري ، كما قام بإنشاء المدرسة الناصرية ، وقد غلبت منافسا للأزهر في ميدان التعليم .

وعندما توفي السلطان الناصر سنة ١٣٤٠ . كان من الحفاوة وحسن الذكر ، أن اجتمعت كلمة الممالك على خلافة ثمانية من أبنائه ، وأربعة من أحفاده على كرسى السلطنة . وفي أثناء ولاية ابنه السابع السلطان الحسن ، عصف وباء الطاعون بالناس ، وكان قد اجتاحت أوروبا وعرف باسم - الموت الأسود - ويحتمل أن يكون قد اجتاحت القاهرة سنة ١٣٤٨ ، ولم يشهد العالم الاسلامى شبيها له من قبل ، وبلغ عدد الموتى في القاهرة وفي مصر ما بين عشرة وخمسة عشر ألفا في اليوم الواحد .

ولم يكن الوباء قاصرا على مكان واحد ، فقد اجتاحت العالم اجمع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لم ينج منه أحد من آدميين ، حتى المخلوقات الأخرى من الأسماك والطيور وعصافير الجنة والوحوش المفترسة ، وبدأ أول ما بدأ بين وثنى آسيا ، ثم حملته الريح الى بلاد الأزيك ، واستامبول فيبزنطة وانطاكية وانتحى الى خلججان كرمان وقيصرية بكل ما حوت من أودية ومرقعات فعصف بكل ما فيها من انسان وجيران وماشية ودواب ، وهرب الأكراد فلم يجدوا منتجعا يحميهم قبل أن يعصف بهم الموت جميعا .

وكان الوباء أشد وقرا في الصين منه في الهند ، وأصاب الناس بالطفح الجلدى في بغداد ، وانساح الى سوريا وفلسطين واجتاحت انطاكية فقتل على خمسماية من سكان حلب كل يوم ، ولم ينج من بلدة جنين غير امرأة عجوز هربت بعيدا عنها ، ولم يترك حيا لا في اللد ولا في الرملة ، وامتلات النزل والبيوت بجثث الموتى ، وفي غزة تساقط الرجال خلف محاربتهم ومات ستة من اللصوص ، وهم يحملون أسلابهم فارين .

ونزل الموت بالمناطق الشمالية من مصر ، مجتاحا مدينة اثر الأخرى وخيام البدو خيمة بعد خيمة ، وفي القاهرة ومصر القديمة عصف أول ما عصف بالنسوة والأطفال ثم بالحرفيين والمهنيين . ونزع السلطان عن المدينة عندما عصف الموت بثلاثمائة من السكان في اليوم ليلا ونهارا وقبل نهاية رجب ، زاد عدد الموتى يوميا على الألف حتى اذا اشتد الوباء خلال الشتاء ، هرع الناس الى المساجد للصلاة داعين الله أن يزيل عنهم الضمة ، وعكفوا على قراءة البخارى بالجامع الأزهر ، وغيره من المساجد الأخرى أياما عديدة ، يدعون الله العلي العظيم في صلاتهم ، وعندما يشعر أحدهم بالحى تسرى في بدنه ، يتلوها نوع من الفتيان ، فيمصق دما ، ثم يموت ، ليقفوه من أهله واحد بعد الآخر خلال ليلة أو ليلتين ، على يقين بأنهم سيلقون حتفهم بنفس المرض ، فيزداد احسانهم ، ويهدون في التكفير عن ذنوبهم بالصلاة والصباة .

« امر بتجديد هذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك
الأشرف قايتباي على يد الخواجه مصطفى بن الخواجا
محمود بن الخواجا وستم غفر الله لهم بتاريخ شهر رجب
عام احدى وتسعمائة ، وقد صرف الخواجا رستم على هذه
العمارة من ماله الخاص ، وبلغ مقدار ما صرفه نحو
خمسة عشر ألف دينار »

ويبدو مما كتب أن قايتباي كان أكثر اهتماما بالأزهر عن غيره من
المساجد وقيل انه كان يقوم بزيارته متخفيا لحضور الصلاة ، وليسأل
الناس عما يرون من ادارته للأمور ، فلما وقع مريضا في دمشق
عام ١٤٧٧ أخذ الشيوخ والأئمة وفقهاء المذاهب الأربعة في تلاوة
البخاري ، ووزعت الصدقات على طلاب الأزهر ، حتى اذا وافته المنية
سنة ١٤٩٥ م (٩٠٧ هـ) وخلفه ابنه الناصر ، لم يكن هو أو غيره على
مستوى المسئولية والاحداث الجارية حتى ولي السلطنة قاضيه
الفوري ، وقيل أن على الحكم بسنوات ثلاث حيث أن اتخذ
فاسكو دي جاما طريقه عام ١٤٩٧ حول رأس الرجاء الصالح وأصبح
طريق التجارة الأوربية الى الشرق البعيد وفقدت مصر ما كانت تجنيه من
عوائد المرور مما كان له أبعد الأثر على الظروف الاقتصادية في مصر .

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اغاروا على ثغور البحر الأحمر ،
وفيما بين سنة ١٥٠٢ و ١٥٠٦ حاول الفوري أن يزيحهم عنه
بلا جدوى ، ومع ما حل بمصر من هزائم في الخارج وخلل اقتصادي في
الداخل ، استطاع أن يقوم ببعض الانجازات الداخلية التي كتبت له في
سجل الخلود ، فمازلنا نذكر المنذنة الجديدة للجامع الأزهر ، وهي
منذنة ضخمة ، يصفها ابن اياس (١) ، بأنها منارة ضخمة ذات رأس
مزدوجة ، وهي عالية امتازت بتلبيس القاشاني ببدن دورتها الثانية ،
كما امتازت بوجود سلمين فيما بين دورتيها الأولى والثانية لا يرى الصاعد
في أحدهما الآخر ، وهي احدى النكت في العمارة الاسلامية .

وفي بداية القرن السادس عشر ، كان هناك ثلاث دولات كبرى
في الشرق الأوسط : اولاهما سلطنة الفوري بمصر وفلسطين وسوريا .
والثانية للشاه اسماعيل في فارس زعيم طائفة الشيعة ، ثم السلطان
العثماني سليم في القسطنطينية ، ويحكم آسيا الصغرى وبعض
البلقان .

(١) Creawell (Egypt) V. I, pp. 39-40. The Pendentives of the
dome are like those in mausoleum of the same period.

وفي سنة ١٥٠١ أوقع السلطان سليم العثماني الهزيمة بالشاه اسماعيل الصفوي في فارس ، وبعد خمسة عشر عاما اجتاحت سوريا ، واستطاع آخر سلاطين المماليك السلطان قنصوه الغوري أن يعد جيشا عام ١٥١٦ للدفاع عن بلاده ، من عشرة آلاف فرقة من فرسان المماليك ، وخيالة العرب على خيولهم المطهية ، والبدو من حلفائه فوق جمالهم ، والطباكين والزمارين وحامل البيارق في موكب حافل وصناديق المال على ظهور الجمال ، يحرسها الصيافة ، والمئات منها تجر العربات محملة بمعدات القتال والذخائر ، الى جانب الفيلة والجمال والبغال تحمل المموين ، وفي اثرها الحدادون والتجارون وعمال البناء وكل ما يلزم الممسكر من معدات *

ولم يكن هذا الجيش الكبير ، بما كان معه من قوات سورية غير خيلاء باطللة *

وكان اللقاء في مرج دابق (١) على مسيرة يوم من شمال حلب ، وكان الغوري في الثامنة والسبعين من عمره ، لم يتحصل اوراق المعركة ، فوقع ميتا . والجيش في ميسس الحاجة الى قيادته فوهنت ممنوياته ، وكان نصرا مؤزرا للعثمانيين ، انحدروا منه الى سوريا في طريقهم الى مصر ، وخلفه على القيادة - طومان باي - فالتقى بالعثمانيين، وهزم في موقعة - الربدانية ، ثم قبض عليه وشنق ، وعلقت جثته على باب زويلة ، وهي ما تعرف الآن باسم - بوابة المتولي - وغدت مصر ولاية عثمانية ، سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) *

ولم ينل الازهر ضرر كبير ، لمكانته عند العثمانيين حتى غدا من بعد منارة العالم الاسلامي *

(١) سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) *

مصر تحت الحكم العثماني

السلطان سليم يفتح مصر	١٥١٧
السلطان سليمان القانوني إعادة تنظيم الدولة وإنشاء الديوان	١٥٢٠ - ١٥٦٦
وفاة أول شيخ للأزهر	١٦٩٠
التنازع حول تعيين شيخ الأزهر	١٧٠٨
عثمان كتنخدا يبدأ تحسين الأزهر	١٧١٧
عبد الرحمن كتنخدا وتوسيع مساحة الأزهر	١٧٥١ - ١٧٥٢
علي بك الكبير يستقل بمصر عن الدولة العثمانية	١٧٦٩ - ١٧٧٣
أبو الدهب يستعيد السيادة العثمانية	١٧٧٣
إبراهيم ومراد يستأثران بشئون مصر الداخلية	١٧٧٥ - ١٧٩٨
نابليون يفرض مصر	١٧٩٨

الفصل الرابع = الأزهرفه العصر العثماني .

السيادة العثمانية :

عندما احتل الجيش العثماني القاهرة ، قتل عشرة آلاف من المصريين وأحرق العديد من البيوت ، وقطعت رؤوس عشرة آلاف من المباليك الشرکس ، وألقيت بأجسادهم إلى النيل بينما علقت رؤوسهم في جزيرة الروضة حتى يراها الناس جميعا .

ومع ما كان من عسف العثمانيين بمن تصدوا فقتلهم ، فإنهم لم يمسوا اللاجئين إلى الأزهر بسوء اكبارا لقداسته . كما يقول ابن اياس (١) .

وقد سطوا على القلعة وبيوت الأمراء والسلطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر ، والكتب حتى أعمدة الرخام وكل ما ركب فيها .

ونقل إلى الاستانة المئات من العلماء والمقدمين والقضاة وكل من له نفوذ أو امرة في مصر .

وأمر بجمع رجال الحرف والصناعات ، فجمع منهم حوالى ألف وثمانمائة صانع ونقلهم إلى الاستانة ليذيعوا الصناعات الدقيقة بها ، وقيل انه قضى بذلك على نحو خمسين صناعة . مما كان سببا في تدهورها .

وجمع من تجار خان الخليلي ، وغيرها من الأسواق الأخرى وجردها من كل ما فيها وبعت بها وبأصحابها إلى الاستانة .

وقضى السلطان سليم ثمانية شهور ، كان يؤم خلالها الأزهر ويؤدى صلاة الجمعة ، وأغلق عليه المال والهبات ، وصان مقتنياته ومكتبته ونجت مما حل بغيرها .

وبقيت للأزهر مكائنه وأكباره حتى بعد أن ارتحل السلطان سليم من مصر عائدا إلى مقر حكمه . وفيما بين سنة ١٥١٨ وسنة ١٥١٩ ، أصبح الأزهر مقاما للقراءات الدينية والعبادات والمواسم . والتبرك .

(١) ابن اياس : الجزء الخامس . الفتح العثماني ص ١١٥ - ١١٧ .

وعندما انتاب المرض الوالى العثمانى بالقاهرة قام بتوزيع الصدقات على طلاب الأزهر ، وعتق بعض الارقاء الى الله وبركة .

وجاشت مصر بالأحداث خلال الحكم العثمانى ، تكتفى بذكر بعضها ، من قبيل التعميم دون التخصيص . ففي عام ١٥٢٠ خلف السلطان سليمان القانونى السلطان سليم على الحكم ، وكان من أعظم سلاطين الدولة العثمانية ، فحين عجز الوالى عن ادارة شئون مصر بمث بصره ووزيره ابراهيم ليسوس أمورها ويعيد النظام اليها ، ومع ما شغل به من حروبه مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، فقد أعاد تنظيم ملكية الأرض ، وسن قانونا بتنظيم الادارة والحكم فى مصر . وكانت مصر ولاية من بين ثلاثين ولاية للدولة العثمانية تخضع مباشرة لحكم السلطان العثمانى فى استامبول بسلطانه المطلق ، وان خضع لتعاليم الاسلام ، وبما أنه كان يحكم امبراطورية فسيحة ، فقد فوض الحكم الى مندوبيه ومنحهم نوعا من الاستقلال الذاتى .

ولم يبدل العثمانيون أية محاولة لتمثيل تلك الشعوب داخل امبراطوريتهم وبقي لكل ولاية شخصيتها الذاتية . وفى مصر عملوا على كسب مشاعر الجماهير ولوائهم بالحفاظ على تعاليم الشريعة الاسلامية ، ورعاية رجال الدين وعلمائه وزوايا الصوفية . ولما كان وادى النيل بنائى من السلطة المركزية للدولة ، فقد اختطت لادارتها ثلاثة مبادئ :

أولها : الباشا وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانية المحلية ، يتلقى أوامره من السلطان ويوافيه كل عام بالجزية السنوية دون تدخل الحكومة المركزية فى جبايتها ، ولم تكن وقفا على المال وحده ، بل تتضمن اعداد السلطنة بما فيها من مواد الغذاء كالأرز والسكر ، والخضر والفواكه والطور والتوابل ، وغير ذلك مما تحتاجه السلطنة .

والثانى أن يحكم الباشا الولاية عن طريق مجلس يعرف بالديوان يرأس الباشا اجتماعاته . وحتى لا تراوده نزعة الى الاستقلال . لا تمتد ولايته لأكثر من عام واحد ، ليخلفه غيره ، وليس له ما لغيره فى الولايات من مال أو مرتبات عينية ، ومع ما كان له من مكانة لم يكن يسمح له بحضور جلسات المجلسين الاستشاريين اللذين أقيما فى القاهرة . وان كان له أن يرسل مندوبا عنه يعرف باسم الكتخدا أو الكخيا ، ولم تكن عضويتيها قاصرة على رؤساء الادارات وأمراء الممالك بل يضمآن رؤساء المذاهب الأربعة وعددا من كبار المشايخ ، وهم فى انتمائهم الى الأزهر ، يشفون عليه نوعا من النفوذ السياسى المؤثر .

والعامل الثالث فيما احتذاه العثمانيون للحكم في مصر ، أنهم اتخذوا من المماليك أمراء للأقاليم ، كما كانوا قبل الفتح العثماني ، تلقى لهم الطبول وترفع لهم البيارق ، وكان منهم أربعة وعشرون أميراً للأقاليم والإدارة المركزية ، ويعرف حاكم الأقاليم باسم السنجق . فكانوا أشبه بأمراء الاقطاع بما لهم من مزايا اقليمية ومالية . وكان منهم من بعد شيخ البلد وأمير الحج ، ورغم ما كان من تبعيتهم للدولة العثمانية وهيمنتها ، فقد عدوا ولهم نفوذهم ومكانتهم في الأزهر خلال القرون الثلاثة التالية كما كانوا من قبل أبان الغزو الصليبي والمغولي .

وقد اتسم الحكم العثماني في بدايته بالقسوة والملمات الجائحة وصراعات أمراء المماليك مع بعضهم البعض خلال القرون ، وإن حفلت الحقبة الأخيرة من القرن السابع عشر بنوع من الرخاء فانقسمت القاهرة وامتدت حتى كان الطواف بها يستغرق يومين . فكان على حافة النهر في بولاق قرابة ألف من القوارب النهرية الراسية .

وأخذ الثروة من التجار يقللون المماليك في اقامه القصور الفارهة والمسكن الفاخرة .

ويصف زائر طاف بالقاهرة سنة ١٦٨٦ :

« إن القاهرة الكبرى ، وكان الأتراك يسمونها (الكبر) تعد أكبر مدن العالم تحيط بها أسوار تمتد نحو عشرة فراسخ ، بها سبع بوابات تطل على أربعة وعشرين ألف شارع وتضم اثنين وعشرين ألف جامع . مما أشاع في جوانبنا نوعاً من الفسطة لرؤية تلك المدينة حين تتطلع إليها من عل فترى النور وقد امتدت اسطحها مستوية على سواء ، والعديد من المساجد قائمة في وقار ، يبهج النظر ، وإن كانت للطرز غريبة ووريدة ، ودور العامة من الخشب ، وإن كانت المساجد قائمة البناء لا تقل عنها روعة بيوت الأكراد . تطل الشمس من ثوابها فتشيع فيها النور ، موهبة بالطلاء للذهب محلاة بكل ما يبهج من حل وزينة فاخرة » .

الفتح الدواسية في العصر العثماني :

عندما زار ليون الافريقي Leon L'Africain مصر خلال القرن السادس عشر ، كتب : يوجد بالقاهرة عدد لا يحصى من المعابد رائعة البناء عظيمة المساحة في شتى مناحي القاهرة وأقسامها ، وإن كان العثمانيون لا يتكلمون لغتهم التركية ، فإن أكبارهم للاسلام وحاجتهم الى من يديرون دولتهم

برالى دراساته العليا • وهو ما يقرره - سير هاملتون جب - والأستاذ -
بورين Professor Bowen فيما يلى :

« كان الأزهر بلا ريب أبرزها وأهمها ، (لموارده الكبيرة)
فى كافة البلاد العربية • ولعله كان أكثرها مددا ، وأحفلها
بالعلماء والفقهاء والطلاب لا من أبناء القاهرة ، وأقاليم مصر
الأخرى فحسب ، بل من كافة البلاد الإسلامية ، لما كان له من
مكانة رفيعة وغلت المعاهد الأخرى والمدارس ، توابع له وإن
تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتى ، فيما تتلقاه من معونات ،
إلا أن شيوخها والقائمين بالتدريس فيها كانوا تابعين فى
مناصبهم لتعاليم شيخ الأزهر ، وكان هناك حوالى عشرين مدينة
من مدن مصر ، لها معاهدها الخاصة الملحقة بالمساجد تتباين
فى عددها ما بين مدينة وأخرى ، وكان شيوخها والقائمون
بالتدريس فيها من أبناء الأقليم ، وإن تلقوا دراساتهم بالأزهر ،
أهمها معهد رشيد ومعهد دمياط ، ومعاهد دسوق ، والمحلة
والممنصورة وطنطا فى الوجه البحرى ومعهد طهطا فى الوجه
القبلى •

ولم يكن من شيوخ الأزهر خلال القرن الثامن عشر ، من
أبناء القاهرة أصلا •

وقد قل عدد المنح الدراسية أواخر العهد العثمانى عما كانت عليه
فى بدايته ، ومما يشير إليه - ستانلى لين بول - أن الدراسة كانت قاصرة
على النحو واللفظ والخطابة ، وكان أكثرها حفاوة بالاهتمام بالفقه والشريعة
الى جانب قلة أقبلت على دراسة تاريخ مصر التى ينتمون إليها من غيرهم ،
وأقل منهم عددا من أقبلوا على دراسة الطب والدواء والكيمياء والرياضيات
والفلك • ومن قال منهم بأن الأرض تدور حول الشمس عد مارقا واتهم
بالإلحاد •

وغلت المنح الدراسية فى القاهرة اقليمية ، فلم يكن من أبناء مصر
من يطلب العلم فى الخارج ، وكان كل ما يحظون به من معرفة ممن يصادفهم
من أربابها فى حجهم الى مكة ، وكانوا قلة حفلت بدراسة العلم الغربى
كما نرى من دراسة سيرهم ، وكانوا ممن ولدوا عام ١٦٨٩ ، أحطم - أحمد
ابن عبد المنعم الممنهورى ، وقد نشأ طفلا فى إحدى مدن الدلتا ، وبدأ
دراسته بالأزهر صبيا ، وأبدى اهتماما بالغا بدراسة العلوم الإسلامية
وأصبح حجة فى دراسة المذاهب الأربعة • وغدا وله حلقته الدراسية الى
جوار المشهد الحسينى القريب من الأزهر ، وفى سنة ١٧٧٨ قام بالحج

أربعين أو خمسين علما منهم خمسة أو ستة من الاعلام الشهورين » •

ولم يكن هناك ما يجيز للطالب الالتحاق بالأزهر فان الطالب ما أن يلم بالقراءة والكتابة ويحفظ على الأقل بعض سور القرآن في أحد الكتابيب في قريته أو اقلييه ، ليقتضى سنة أو سنتين ليلى بتفسير القرآن واللغة العربية حتى يجاز له الالتحاق بدراسة عليا •

وغالبا ، ما يختار الطالب ، خلال هذا العصر الوسيط ، الدراسة التي تروقه حتى اذا بدأ القرن الثامن عشر ، كان للطالب أن يؤم دراستين أو أكثر من فضول للدراسة كل يوم ، وكان النابه من الطلاب يوافي دراسته اليومية على الصورة التالية :

الساعة الثالثة والنصف حتى الرابعة صباحا :

الوضوء وأداء صلاة الفجر •

الساعة الرابعة بعد الظهر :

دراسة الفقه ، والحديث والتفسير ، يتناول بعدها حصته من الجراية •

الساعة السادسة مساء :

تتأخر شتاء عنها صيفا مع اختلاف ساعات النهار • دراسة :
الفقه ومذاهبه •

الساعة العاشرة مساء :

المذاكرة والعشاء المكون من القول المنمس والكراة والخبز •
وأحيانا ما تعقد دراسات للخط وتحسينه • أو بعض الموضوعات
الإضافية في بواكير الصبح •

الساعة الثانية عشرة ظهرا :

صلاة الظهر ، يتلوها دراسة للنحو أو الخطابة ، أو أصول
الشريعة •

الساعة الثالثة والنصف :

صلاة العصر ، وراحة القيلولة ، وتحضير الدروس ثم تناول
العشاء من الخبز والجبن والحلوى وأطعمة أخرى •

الساعة السادسة والربع مساء :

صلاة المغرب ، يتلوها دراسة لموضوعات إضافية كالمنطق
والفلسفة •

مؤمنين بقربه من الله ، فلذا مر بقريب أو اجنبي لانه يترجل
لتحيته ، واذا مضى الى الجزائر ليبتاع اللحم - لانه يرى ان
يبتاعه بنفسه فلا يوكل به غيره ، فان الجزائر يابى ان يقتضيه
التمن ، ويقبل يده ، وانها لنعمة كبرى ان يمنحه
ما يشاء * * *

وفى غمار هذا المنحى من ثقافة هذا العصر الوسيط ، بكل ما حفل
به من مظالم وقسوة وخرافة وتصوف كان من معالم الثقافة فى ذلك العصر
الوسيط أن انبجست حملة نابليون بونابرت فكانت بداية تاريخ مصر
الحديث ، وفصل جديد حافل فى تاريخ الأزهر .

الفصل الخامس : بداية التاريخ الحديث

وعندما طعن مالمى حمارا بالاسكندرية فقتله فى ١١ يونيو ١٨٨٢ ،
وبلغ التوتر مداه ، وقام السهماء على اختلاف أجناسهم بإثارة الشغب
وقتل خسون أوربيا ، وهرب أربعة عشر ألف مسيحي أجنبى من مصر ،
وعقدت البول مؤتمر الأستانة لبحث ما كان من هذه الأزمة ، بعيدا عن
السيطرة الأوربية ، اختار الحديو واغب باشا رئيسا للنظار وعرايى ناظرا
للجهادية ، وما كان بعد ذلك من انذار الانجليز بضرب الاسكندرية ،
ورفض المصريون الانذار ، فقصف الانجليز الاسكندرية • وكان حريق
الاسكندرية وانسحاب الحامية المصرية ، واحتلها الانجليز حتى تتم لهم
السيطرة عليها •

وما ان عزف الأتراك والفرنسيون عن المشاركة فى احتلال مصر
اضطلع الانجليز بالأمر وحدهم فاحتلوا الاسكندرية ، ثم أوقفوا الهزيمة
بمرايى فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ فى التل الكبير ثم زحفوا الى القاهرة
واحتلوها •

وفى الكتابة عما كان حينذاك ، نرى لورد كرومر يقول : - ان علماء
الأزهر وشيوخه على قلتهم ، كانوا أصحاب الأثر الأكبر فى التأثير على
الرأى العام وقيادته بين المصريين •

ومع ما كان من جهدهم وجهادهم فقد قدر للأزهر أن يبقى فوق
أرض يحكمها الأجانب والخارجون على الملة •

العصر الحديث

الخديو توفيق	١٨٧٩ - ١٨٩٢
الاحتلال البريطاني	١٨٨٢
إعادة بناء مدرسة أقبيا	١٨٨٨ - ١٨٨٩
الشيخ محمد عبده - المفتي الأكبر تجديد الأزهر	١٨٩٢
الخديو عباس حلمي الثاني	١٨٩٢ - ١٩١٤
تشريعات بإصلاح الأزهر	١٨٩٥ - ١٨٩٦
تجديدات عديدة - إنشاء مكتبة الأزهر	١٨٩٦ - ١٨٩٧
بناء الرواق العباسي	١٩٠١
الانتهاء من بناء خزان أسوان	١٩٠٣
تشريع إعادة تنظيم الأزهر	١٩١١
بداية الحرب العالمية الأولى	١٩١٤
السلطان حسني كامل	١٩١٤ - ١٩١٧
الحماية البريطانية محل السيادة العثمانية	١٩١٧ - ١٩٣٦
فؤاد الأول	
ثورة ١٩١٩ تم مصر	١٩١٩
مصر ملكة مستقلة	١٩٢٢
قوانين بتحويل الأزهر الى جامعة	١٩٣٠ - ١٩٣٦

بناء ادارة للأزهر - المعهد الدينى - المستشفى والعيادة الخارجية	١٩٣٦
الملك فاروق	١٩٣٦ - ١٩٥٢
الحرب العالمية الثانية	١٩٣٩ - ١٩٤٥
اقامة مربع لجامعة الأزهر	١٩٥٠ - ١٩٥١
الثورة ، وعزل فاروق	١٩٥٢
مصر جمهورية	١٩٥٣
استكمال بناء دار المفترين	١٩٥٩

الفصل السادس : التجديد والإصلاح .

عندما احتل الانجليز مصر ، كانت تابعة للدولة العثمانية ولكنها كانت تبعية اسمية لاتتعدى أداء الجزية (*) السنوية للسلطان العثماني ، وكان الخديو مثله في حكم مصر يماونه مجموعة من الافراد والمجالس الاقليمية ، وقد ترك الخديو توفيق كامل الحرية في حكم مصر ، وتقبل كل ما قاموا به من تغيير أو اصلاحات .

وكان المعتمد البريطاني في الواقع هو السلطة التي تحكم من وراء الخديو ، وهو السير أفلين بارنج ، وقد ظل متربعا على قمة السلطة من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٠٧ وقد أصبح لورد كرومر « Earl of Cromer » ولا كان السفير البريطاني مقيما بالأمستاة ، فان لقب كرومر هو – الفنصل العام – وقد غدا وله السلطان الأوفى في مصر حين نجح عام ١٨٨٤ في تسوية ديون مصر بصورة مرضية عادت على مصر بنوع من الاستقرار المالي .

وفي عام ١٨٩٢ خلف الخديو عباس حلمي الثاني توفيق ، وأهم أحداث حكمه اعادة فتح السودان على يد كشمير سردار الجيش المصري سنة ١٨٩٨ ، وتكملة انشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٣ الى جانب انشاء قناطر أسبوط وزفتي ، وأخيرا ابرام الاتفاق الودي عام ١٩٠٤ ، بالاعتراف لفرنسا بنفوذها في مراكش ولانجلترا في مصر . ولم يكن من اليسير صيانة الأبنية الكبرى لما تتطلبه من نفقات باهظة ، لا بسبب الديون التي أثقلت مصر في تلك الفترة ، ولكن بسبب ما واجهت من خطوب سياسية .

وحين اعتلى توفيق اريكة الخديوية ، كان بناء الأزهر في حاجة الى التجديد ويشير – الأستاذ كرزويل – الى تقرير يرجع الى سنة ١٨٨٢ حول صيانة مباني الأزهر ، يتضمن الاشارة التالية :

(*) ما تملكه مصر للدولة العثمانية لم يكن جزية ، فان الجزية تؤخذ من أهل الكتاب .

(مع ما تم من إصلاحات عديدة لبني الأزهر فان
الكثيرون لم يلاحظوا كبر حجم الجامع وسعة مساحته فالأجزاء
الرئيسية في هذا المرح قد تصوحت وفي حاجة الى تجديد ..
ويسجل الأستاذ كرزويل أيضا - أن صورة نفسها مجموعته
قام بتصويرها - جيونتينى Giuntini - منذ زمن يرجع
الى ثمانينات القرن الثاير للواجهة الشمالية الغربية من صحن
الأزهر تستند الى دعامه ، هذا بالإضافة الى أن المسافة بين
الأعمدة تستر النصف الخارجى منها ولا يبدو منها غيره) .

وزيد على ذلك أن على مبارك يذكر مدرسة إقبفا ، ويقول انها
بقيت على حالها لاتمس حتى قوضها ديوان الأوقاف ، وأخذ يعيد بنائها
على ما كانت عليه من قبل ، ومع ذلك لم يتم بناؤها ، وكان ما قاله
عام ١٨٨٨ أو عام ١٨٨٩ بينما أعيد بناء الحوائط الخارجية فى الشمال
الشرقى والشمال الغربى من الواجهة والسقف والأعمدة التى تقوم
عليها من جديد .

كما أضفى عليها الخديو توفيق الستائر الخشبية التى أقام دعائمها
من قبل السلطان قايتباى ليفصل ما بين الصحن وبهو الأعمدة ، ومن
يمن الطالع أن ما قام به الخديو توفيق لم ينل من جمال وروعة الصورة
التي كانت عليها فى بنائها المملوكى الأصيل ، وفى نفس الوقت أعاد
الخديو بناء البواكى التى أقامها كتحدا حول المحراب الجديد الذى
شاده ، وأعاد بناء الحوائط الخارجية للحوائت التى تفصل بين المحراب
والطريق الخلفى .

وعند ولي الخديو عباس حلمى الثانى المنصب عام ١٨٩٢ قام بإزالة
الأزهر ليرى كيف يجرى البناء فيما أمر به ، وكانت الأعمدة والبواكى التى
تحيط بصحن المسجد قد أعيد بناؤها على الصورة التى تقوم عليها الآن .
ما عدا سقفة الباب التى بناها الخليفة الحافظ ، فقد بقيت على حالها
دون تغيير يذكر .

كما تم تحسين الميضأة ، وأعيد بناء حوائط الأروقة التى تطل على
الطريق من ناحيته الجنوبية .

وبعد سنوات أربع بدأت إزالة الحوائت ، والمرايحض والمخازن
التي تمتد فى الطريق المحاذى للمبنى جنوبا وتشوه صورته ، كما تم
هدم حجرة الدراسة التى تملو المدخل الأساسى للمبنى ، وكذلك حافة
السطح من الجانب الأيسر للواجهة .

وفي سنة ١٩٠١ اكمل الخديو بناء ما عرف باسم - الرواق العباسي -
من ثلاثة ادوار ، وذلك في الجانب الغربي من السياج المحيط بالمسجد ،
وعندما اكتمل البناء بدا على صورة رائعة من البهاء وجمال المنظر .

ويضم الطابق الأول - أو الدور الأرضي - جسر فسيحة ممتدة
الأرجاء ، أعدت للامتحانات والمحاضرات التي يلقيها شيخ الأزهر
أو النابهون من العلماء والمفكرين أمثال الشيخ محمد عبده .

وأعدت الأدوار سكنا للطلاب وحفظ حوائجهم الى جانب الدراسة
والذاكرة . كما أضيف الى المدرسة الطيرية عدد من الغرف يفصل
بينها وبين الرواق العباسي طرقا تنتهي ببوابة صغيرة تطل على الشارع
الأمامي ، وتم تسقيف الجوانب الأساسية من مبنى المسجد خلال تلك
الفترة .

وأدى سوء الحالة الصحية وانتشار القذارة والاعمال بين الطلاب
الى الاهتمام بالنواحي الصحية والوعي الصحي بين الطلاب - ففي سنة
١٨٩٨ تم تعيين طبيب لرعاية الطلاب وعلاجهم ، فقام بتحديد أعداد
الطلاب في غرف السكن ، أو أي مكان آخر يؤمه الطلاب للنوم ، وأمر
بعمال للنظافة وكنس الأبنية والأروقة ، وأنشأ عيادة وصيدلية في
الرواق العباسي وأمر بعزل المرضى من المقيمين بأمراض معدية بعيدا عن
المسجد ، وفي سنة ١٩٠٤ تم بناء مستشفى حكومي قريبا من الأزهر ،
وان لم تكتمل الرعاية الصحية للطلاب حتى سنة ١٩٢٩ .

وفي نفس الوقت زادت الجراية من خمسة آلاف وغيف الى خمسة عشر
آلف وغيف في اليوم ، وكان توزيع أرغفة الجراية في بداية القرن العشرين
يتم ما بين الفجر حتى الساعة العاشرة صباحا . وذلك في الجانب الأيسر
من الصحن المفتوح ، وبعبر الوقت نقل الى مبنى خلف المسجد . ويقوم
المستول عن الرواق بتوزيع أرغفة الجراية على الطلاب .

وحينذاك كان المسرون من الطلاب يبيعون رغيفين من الأرغفة الأربعة
ويكتفون برغيفين لطعامهم .

ورأى الشيوخ أن يتسلم الطلاب جرايتهم عينا بدلا من ثمنها لقدا
فلا يتسنى للطلاب من تنقصهم الدراية بانفاقها ، ويتضورون جوعا
بعد انفاقهم ثمنها . الا أنه في سنة ١٩٢٩ ، تم ابدال الجراية بما يدلها
من الثمن كل ستة شهور .

ومن صور الانجازات القويمة انشاء مكتبة مركزية للجامعة
الأزهرية ، ففي عام ١٨٥٣ قامت ادارة الأوقاف بأعداد قائمة للكتب
للمعاهد الأزهرية ، بالقاهرة ، ضمت ١٨٥٦١ كتابا ومخطوطا ، الا أنها

وزعت على الأروقة وأهملت ، كما كان هناك العديد من المخطوطات الثمينة تم حفظها . يمكن قريب من الأزهر ، دون مسئولية محددة للحفظ عليها وصيانتها . حتى كان عام ١٨٩٦ وعام ١٨٩٧ ، وقرر شسيخ الأزهر الحفاظ عليها وصيانتها بمعهدى أقبيا ، وطيبيرس . فى خزانات وصناديق واتخذت الخطوات لإنشاء مكتبة مركزية للأزهر .

وفى البداية ، كانت تضم ٧٧٠٣ مجلدات للعديد من الزان المعرفة قبل انها تعرض لسبعة وعشرين منحنى من مناحى المعرفة ، حملت اليها من مخازن الأروقة والمعاهد المجاورة ، وقد تباطأت بعض الأروقة فى تسليم ما لديها الى المكتبة الجديدة ، فان تفويض أمين مكتبة الأزهر الجديدة بالهيسنة على انشائها ، قد مكثه من حصر عدد الكتب بالمسجد وأروقتة ، وفى عام ١٩٠٩ شكلت لجنة لاختيار وابتساع الكتب الجديدة ، ومع ما بذلته من جهد ، فان بطء الاجراءات لم يكنها من انجاز ما تراه ، وكان العوض غير العوض فى الهدايا التى اثالت عليها من المتبرعين بكتباتهم ومؤلفاتهم لمكتبة الأزهر .

ومع ما كان من تحسينات أخرى قليلة ، كالأضائة الكهربائية ومواسير المياه ، لم يكن هناك ما يذكر من تغيير فى بناء الأزهر ذاته ، فيما عدا ما تناوله الأستاذ كرزويل من تفاصيل مسهبة عن عمارة الأزهر فى المجلد الأول من كتابه الأثير عن العمارة الاسلامية فى مصر .

الامام محمد عبده :

وفى الوقت الذى بدأ فيه غرس الأزهر يؤتى أكله من الناحية المادية ، حلت به اثارة فى اتجاهاته الفكرية والأكاديمية ، يرجع الفضل فيها الى الامام الشيخ محمد عبده ، فقد كانت حيساته اشعاعة ضسوء أضفت أنوارها على الأزهر - كما يقول - الدكتور عثمان أمين فى كتابه - (رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده) .

وقد ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٤٩ ، وما أن ألم بالقراءة والكتابة فى داره ، التحق بكتاب القرية حيث حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره ، التحق بعدها بالمعهد الأحمدي بطنطا لعامين ألم خلالها بقراءة القرآن وتجويده ، حتى اذا بدأ دراسة النحو لم ير فيه ما ينشده ، فغادر المعهد ، وحين أجبره أبوه على العودة اليه أبى ، وقصد بيت عم أبيه الشيخ درويش ، وكان من المتصوفة ، فأخذ عنه نزعتة الصوفية ونصحه بأن يستكمل دراسته فعاد الى المعهد الدينى بطنطا من جديد . وانتقل الى الأزهر عام ١٨٦٦ حيث عاف الجمود والادعاء ونزع عنهما الى التصوف ، وحين أب الى زيارة عمه مرة ثانية

سنة ١٨٧١ نصحه بأن يستكمل دراسته ليتزود بالمعرفة والنظرة الصائبة للأمور ، وفي نفس السنة التقى بجمال الدين الأفغاني ليأخذ عنه المعرفة بحقائق الإسلام ، وجدوى العلم الحديث ، وأشمل في نفسه الرغبة في الكتابة وكان أن بدأ الشيخ محمد عبده يكتب للصحف ، وكان أول مقال له بعنوان - رسالة الواردات ، وغضب منها بعض شيوخ الأزهر عند ظهورها سنة ١٨٧٤ ، لانتقادها صورا معينة من الاتجاهات التقليدية ، وكان منه ما زاد نفورهم منه ، ولولا تدخل شيخ الأزهر ما فاز بدرجة العالمية وأن أجاز بها دون الامتياز ، بينما تعلق على درجة الامتياز .

وما أن حصل على العالمية سنة ١٨٧٧ أخذ يحاضر في الأزهر عن التوحيد والمنطق وعلم الأخلاق ، هذا الى جانب حلقات الدرس في بيته والدروس التي يندب لالقائها بالمدارس الأميرية ، وقد اتصل بالمحافل الماسونية ، واتجه بكل اهتمامه الى النواحي الاجتماعية والمشكلات القومية التي تتعور المجتمع الذي يعيش في رحابه .

وفي سنة ١٨٧٩ عندما طرد الأفغاني من مصر قال : (لقد تركت فيكم الشيخ محمد عبده وفي حكمته الكفاية لمصر) ولصداقته بالأفغاني رأى أن يعتزل ففادر القاهرة الى قريته ، ولم يمض به الوقت طويلا حتى دعاه رياض باشا ناظر النظار ليشرف على المطبوعات الحكومية بما فيها الوقائع المصرية الجريدة الرسمية ، التي تسوزع على كافة المحال في القطر .

وكان من المثير أن يرى الناس شيخا من الأزهر ، بجبته وعمامة البيضاء يتبنى اصلاح التعليم ، ويدعو لتحقيق العدالة ، وتحسين وسائل الري ، وكل ما يعنى المصريين من أعمال وإنشاءات ، وفي هذا يقول الشيخ رشيد رضا : أية عمامة كانت ، انها تشرف بالراس التي تقوى فوقها ، وتثير حسد أصحاب الطرايش ، وتحظى بالكبار لايسى القبعات .

وقد حمل الشيخ محمد عبده ومضى فيها داعيا بالاعتناق والمسالمة دون العنف والمصالوة أو الثورة ، وقد أبعد عن مصر منفيا بعد الاحتلال البريطاني وفشل الثورة العربية لناصرته لها ، واختار بيروت مثوى ومقاما ، حتى دعاه الأفغاني ليوافيه في باريس وأصدرها مجلة العروة الوثقى وغير بعض أرديته قلبس الطربوش بدلا من الصمامة .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد الى بيروت حيث قام بتدريس العلوم الاسلامية بالمدرسة السلطانية ، وهي مدرسة حكومية ، وفي اوقات الفراغ يكتب على تدوين كتاباته التي خلفها من بعده ، وأخيرا يعود الى مصر سنة ١٨٨٨ ، حيث عين قاضيا في الاقاليم يعود بعدها في نفس منصبه بالقاهرة وفي

العام التالي اختير عضوا في مجلس شورى القوانين حتى اختير لمنصب الافتاء في مصر . وكان مر. فتاواه ما خلد وخلد بها ذكره في عالم الاسلام ومنها فتواه بتحليل مدخرا ، صندوق التوفير وايداعات البنوك ، كما كانت فتواه الأخرى ما حمل شهرته الى كافة بلاد الاسلام وهي تحليل ما يذبح اليهود والنصارى لأكلهم ، كما حلل اقامة التماثيل والصور والتصوير طالما لم يعد ثمة حذر من عبادتها أو تأليهها كما كانت الوثنية قبل الاسلام .

وكان لصحبته بالإنساني واتصاله بالثقافة الأوروبية الرفيعة ما أدى به الى دعوة المسلمين الى الصحو والنهوض لمسيرة العالم المتقدم لا في مصر وحدها بل في كافة أنحاء العالم الاسلامي ، فكان من دعاة اليقظة الاسلامية والدعوة الى التجديد .

وكان يدرك تماما أن الأزهر هو المنارة التي تشع بنورها على كافة أنحاء العالم الاسلامي ، فوضع كل آماله فيه وفي احيائه والنهوض برسالاته وكانت سياسته تجاه الأزهر تتسم بالطابع العلمي ، وكانت خطوته الأولى في هذا السبيل ، أن توضع مقررات ثابتة تحل محل القرارات العشوائية التي تقوم على الاتجاه الفردي للتعليم ، وثانيا أن يمتحن الطلاب سنويا فيما يدرسون للحصول على الدرجات العلمية المقررة والمعتمدة ، وثالثا أن يزود الطلاب بالموسوعات الأصلية لأعلام الفكر الاسلامي بدلا من الشروح التي يقوم بها العلماء من وحي أفكارهم وتفسيرهم لها دون أفكار السابقين الأثيرة ، ورابعا أن تزود المناهج بالبحوث الحديثة ، مهما كانت حداثةها واتجاهاتها العلمانية - Secular (١) - وخامسا أن تكون للأزهر مكتبة مركزية جامعة

(١) هناك خطأ يقع فيه أكثر مفكرى العرب في ترجمتهم لكلمة - Secular - فمرة يلفظ - العلمانية - وأخرى - بالعلمانية ، وتعني في المفهوم الأوروبي - أو الغربي عامة - الثورة على العلم في تناقضه مع تعاليم الكنيسة وما جاء به الكتاب المقدس . (انظر سفر التكوين) وهو ما يخالف الواقع الاسلامي ، فلم يكن ثمة خلاف بين العلم والدين في الاسلام ، وبينما كانت الثورة على الكنيسة فيما عرف بصهر النهضة - Renoussanc - والرددة الى الفكر الاغريقي ، خرجوا على تعاليم الكنيسة ، كانت اليقظة الاسلامية حركة سلفية ترمي الى احياء تعاليم الاسلام الجيدة ، فلم يكن ثمة خلاف بين العلم والدين في الاسلام ثم ان كلمة - Secular - بمعناها الدقيق - تنفي الدينوي - وكان العقاد عملاق الفكر كما دعوته في كتابي عنه - للعقاد عملاق الفكر - أول من ترجمها الترجمة الصحيحة بلفظ - الدينوي - فإذا أطلقت على الفكر الاسلامي بهذا للمنى فانها تعني ألا خلاف بين الدين والعلم في الاسلام - على خلاف ما تنفيه في الفكر الأوروبي ، وما كان من خلاف بين الدين والعلم ، وما كان من خصومة بين رجال العلم ورجال الكنيسة في عصر النهضة الأوروبية ، وهو ما أدى في النهاية الى حركة مارتن لوتر في انكاره للكتائوليكية ، وهي الحركة التي افرزت المذاهب البروتستانتية على تعدد مذاهبها - للترجم .

تحل محل المكتبات الملحقة بالأروقة ، وأخيرا نراه يصر على تحسين واصلاح المرافق الصحية للأزهر جامعا وجامعة .

ومع ما كان من أعباء تقال على الشيخ الامام محمد عبده في وظائفه الحكومية فقد كان حريصا على دروسه في الجامع الأزهر ، حيث يستنى له أن يزود الطلاب بالمعرفة الواسعة الفياضة فيما يعرض له من دراسات ، وأن يصفى على الطلاب من رفته واستجابته لكل ما يمرضون له من صنوف المعرفة ، وقدرته على تفسير القرآن بما يتفق مع العلم النامي ، وقد اخذ بنهج الأفغانى في تفسير ما يعرض له من مشاكل العلم .

ففي محاضرة من محاضرات الامام محمد عبده سألته الطلاب عن مكتشفات باستير ونظرية دارون في التطور ، وفي سعة معارفه وادراكه لمعاني القرآن الكريم ، رجع بهم الى - سورة الفيل - وذلك حين اشار ابرهة على الكعبة ليهدمها خلال القرن السادس ، وان الله ارسل عليهم طيرا ابابيل ، ولم يهتد المفسرون الى ما تعنيه - الطير ابابيل . وكان من اليسير على الامام محمد عبده أن يقول انها لابد وأن تكون نوعا من الجراثيم .

وفي سورة أخرى هي سورة البقرة الآية الثلاثون نراه يفسر آية :

(واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون) .

وقال الشيخ الامام : ان كلمة خليفة تعنى هذا المخلوق الذى سبق وجوده على الأرض وجود الانسان . وكان أقرب الى القردة (١) .

وقد أعد محمد عبده طلابه لادراك خفايا العلم الحديث ومعضلاته فكتب - رسالة التوحيد - وغيرها من البحوث ، ليثير فيهم الايمان الواعى بروح الاسلام .

وقد فكر ووضع مشروع انشاء جامعة وطنية ، الا أن الأجل وافاه قبل أن يحقق حلمه وكان ذلك سنة ١٩٠٥ ، وان ترك معالم فكره لتتري العالم الاسلامى من أقصى المغرب فى مراكش الى أبعد المشرق فى أندونيسيا ، وكان لشجاعته واستنارته ، وقدرته أن يعث في الأزهر من اليقظة والقدرة ما واجه به العالم الجديد فى تقدمه .

(١) ثبت علميا أن انسان جاوة ، أو الانسان القرد قد سبق وجود الانسان من ولد آدم على الأرض ، وهو ما تشير إليه الآية ، فسيحان الخالق ، وغوق كل ذى علم عليهم . وميزة القرآن أن لم يات في العلم ما ينكر أو ينفى ما جاء به ، وما زال في آياته ما لم ندرك سرهما بعد - للترجم .

اصلاح الأزهر :

إشرفنا الى ما كان من اصلاح الأزهر ، وأن أول قانون صدر بذلك كان عام ١٨٧٢ ، باصلاح نظام الامتحانات واختيار الشيوخ وتعيينهم ، ثم كان قانون ٢٤ مارس سنة ١٨٨٥ مؤكدا لنظام الامتحانات مع تعديلات طفيفة ، بينما جاء قانون ١٥ أكتوبر من نفس السنة معززا لقيد الطلاب في أروقتهم بصورة أكثر نفاذا مما كان من قبل ، فقد قرر ألا يتسلم الطالب الجديد نصيبه من الجراية مالم يتم دراسة كتابين من كتب الفقه ، وأن يتم دراسة منهجين من العلوم الحديثة خلال عامين ليسجل بين طلاب الرواق . ولا يسمح لطلاب الالتحاق بالأزهر ، مالم يتسن له ذلك .

وبعد ثلاث سنوات صدر قانون ١٩ يناير ١٨٨٨ ، مؤكدا لنظام الامتحانات ، ولم يكن من اليسير نفاذهما قبل نهاية القرن التاسع عشر .

وخلال سنة ١٨٨٨ عمت الرغبة في أن تتناول المناهج دراسات حديثة ، وتقدم الكثيرون الى شيخ الأزهر بأن يصدر قراره بأن تتضمن مناهج الأزهر تلك الدراسات ، وبعد أن استشار دار الافتاء والجهات الرسمية ، أعلن : (أنه يوافق على تدريس الرياضيات كالحساب والهندسة والجغرافيا مادامت تنشئ الحقيقة والواقع فكل ما تتضمنه مما يقوى الايمان والاتجاه الروحي ، كالحاجة الى الطب والدواء تماما ، فاجيزت العلوم الطبيعية مادامت لا تتعارض مع ما جاءت به الشريعة ، فاذا تناولنا ما وراء الطبيعة كالسحر والشعوذة لانجاز) .

ورغم اتخاذ هذا القرار ، فإن هذه الدراسات الجديدة بقيت تحتل المرتبة الثانية ، بالنسبة لغيرها من المناهج التقليدية التي بقيت . ولها الغلبة . وبقيت الكتب القديمة التي تحتويها هي السائدة ككتاب الجبرتي الذي كتبه في القرن الثامن عشر عن الفلك ، وظل كتاب - ابن الهيثم ، في الرياضيات - وقد توفي سنة ١٠٥٩ مرجعا أصيلا ومن قبيل ذلك العديد من الكتب الأخرى التي بقيت مرجعا للمواد التي تحتويها . في الوقت الذي صودر فيه كتاب - ابن خلدون - في فلسفة التاريخ ويرجع الى القرن الرابع عشر ، رغم اصرار الشيخ محمد عبده على تدريسه .

وفضلا عن ذلك فإن المناهج وقفت دون تناول موضوعات معينة منها على سبيل المثال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفلسفة الأخلاق في الإسلام ، وعلم الكلام ، ولم تلق بالا الى تدريس الانشأه أو تحسين الخط ، وطرق الحوار والحساب ، وكان الاعتقاد السائد أن الطالب اذا تزود بالمعرفة القديمة والدراسات التقليدية ، فاذا أتم الدراسة كان من القدرة على القيام بما يكلف به من مهام الوظيفة التي يشغلها :

وفي هذا الوقت ، نقل شيخ الأزهر مقره الى المسجد الأزهر ، ولم تكن ادارة الأزهر قد استكملت قوامها الاصيل بعد ، ولم يكن للشيوخ دور أصيل في ادارته وكانت مرتباتهم دون المستوى المنشود ، ولم تكن ميزانيته كافية ، فلم تتعد مسنة ١٨٩٢ مبلغ ٤٣٧٨ جنيهًا ، وكان ما يتقاضاه الطالب في المرحلة النهائية لا يزيد عن مائة وخمسين قرشًا في الشهر ، ومن هم دونه مائة قرش ، وللدرس الباقى خصصة وصغيرين قرشًا (٣) ، ولم يكن هناك نظام للتقاعد والمعاش ، وكان المدرس عند تعيينه يفضل الجراية من الخبز بدلًا من النقود ، حتى يخلو مكان في سلك التدريس ب وفاة صاحبه ، ليحل محله ويتقاضى مرتبه ، وكان الخريج حينذاك يفضل أن يترك زوجه بين اهله لاعالتها ، أو يلجأ الى الدروس الخاصة أو أى عمل يكسب منه معاشه في ميدانه الدراسي (١) .

وفي خواتيم القرن التاسع عشر ، صدرت بعض القوانين لتحسين حال خريجي الأزهر وكان الفضل فيها للشيخ محمد عبده ، والشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر . وفي عهده صدر قانون شامل باصلاح الأزهر نظمت بمقتضاه ادارته وأجهزته ، وساعده الشيخ محمد عبده في كل محاولات الاصلاح ، وأنشئت مكتبة جامعة للأزهر حلت محل المكتبات المتفرقة .

وبمقتضى قانون الثالث من يناير ١٨٩٥ أنشئ مجلس ادارة للأزهر ، يتكون من شيخ الأزهر ، ويمثل المذاهب السنية الأربعة : الشيخ حسونة النواوى ممثلًا للمذهب الحنفى ، والشيخ سليم البشرى ، للمالكي ، والشيخ حسن المرصفى للشافعى ، والشيخ يوسف النابلسى للحنبل ، ويمثل الحكومة الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان . وكانت الغاية منه أن تكون ادارة الأزهر أكثر ديمقراطية مما كان من قبل عندما كان شيخ الأزهر لا يشاركه أحد في أمر ، أكثر الأحيان . ولم يكن قانون ١٧ يناير سنة ١٨٩٥ الا توكيدًا لما تقرر في أمر الامتحانات دون تغيير يذكر ، الا أن قانون ٢٢ يونيو من نفس السنة ، كان خطوة أثيرة نحو التقدم ، فقد نص على تنظيم الرواتب والهبات التى تمنح للشيوخ والطلاب ، وتقدير معاش من يتوفى لورثته .

وفي تلك الفترة صدرت عدة تشريعات أضفت على الأزهر تلك الأهمية البالغة وهذا الأثر العظيم الذى ترك معالمة على دنيا الاسلام الى

(*) ليس من المقرر أن يكون نصيب الطالب أكبر من نصيب المدرس الذى لا يخلو هذا للنصيب الا بعد التخرج والحصول على المؤهل الذى لا يزال الطالب يسمى اليه .
(١) كان ذلك في بداية الاحتلال الانجليزى وكانت من أسوأ الفترات في تاريخ الأزهر ، فان النزعة الصليبية ما زالت تسيطر على نوازع المستعمرين - للترجم .

وقتنا هذا وقد غدت مساجد طنطا ودسوق ودمياط من توابه وتحت اشرافه ، وصدر قانون أول فبراير سنة ١٨٩٦ بمسورة العبادة التي يرتديها الشيوخ وفقا لدرجاتهم العلمية في المناسبات الأكاديمية (١) وعدد الشيوخ الذين يرتدون عبادة ذوى الامتياز من الخريجين لا يجاوز عادة خمسة عشر شيخا وعدد من يلونهم في الدرجة العلمية خمسة وثلاثون خريجا ، ويزيد عدد الخريجين من الدرجة الثالثة ليصل الى خمسين خريجا ، وتزدان العبادة باللون الأرجواني يحيط بأطرافها شريط باللون الأصفر المذهب .

وكان لتشريع أول يوليو سنة ١٨٩٦ أهميته البالغة ، مع أن الكثير مما نص عليه قد تم تعديله منذ اشتهاره ، فقد تم تأكيد وضع شيخ الأزهر رئيسا لمجلس ادارته والسلطة العليا القائمة على تنفيذ قراراته وتعزيزها في اجتماعاته الدورية ، بل ويتم الاتفاق عليها مقدما فلا تكون موضع خلاف ، وكان مما تم الاتفاق عليه ألا يلتحق الصبي بالأزهر قبل بلوغه الخامسة عشرة من عمره ، وإن يكون حافظا على الأقل لنصف سور القرآن بجانب المامه بالقراءة والكتابة ، فإذا كان من الصبيان فإن عليه أن يكون حافظا للقرآن بأكمله .

وفي هذا التشريع - أو القانون - تم وضع المستويات الدراسية لفروع الدراسة على الصورة التالية :

أولا : مواد الدراسة أو (المقاصد) وتضم الفقه ، والأخلاق ، والشريعة وأصول التشريع ، والتفسير ، والحديث .

ثانيا : والمستوى الثاني ويتناول الوسائل ، ويتضمن النحو والصرف ، الى جانب علوم البلاغة وهى المعانى والبيان والبديع ، والمنطق ويتوخى المصطلحات الأصولية لعلم الحديث ، وتسمى - مصطلحات الحديث - والحساب والجبر ، والنظم أو - علم العروض والقوافى ، الى جانب دراسات أخرى يلتزم الطلاب بدراستها كالتاريخ الاسلامى ، والانشاء ، والتربية - التهذيب - واللغة والأدب ، ومبادئ الهندسة .

وخلال السنوات الأربع الأولى ، لا يجوز للطلاب أن يقوموا بإعداد أية تقارير ، أو شروح من قبيل (الحواشى) الا بعد أربع سنوات من

(١) أن ما تشير عليه الجامعات الأوروبية والأمريكية في مصمبات أسانقتها وهى حفلات التخرج والأزياء التي يرتدونها فيها ، قد أخذت جميعا من الأزهر وشيخ الحلقة هو أستاذ الكرسى ، والروب الذي يرتديه الخريج في حفل تخرجه هو العبادة الأزهرية ، بل أن اللجة التي يطمها الطالب في حفل تخرجه أشبه برداء الرأس بسلبته عند خروج الأزهر - التخرج .

الدراسة ، وبعد أن يأذن لهم بذلك مجلس الأزهر ، فلا يتسنى للطالب الذي تنقصه الموهبة أو النضج العقلي فلا يفشى تفكيرهم هرطقة أو أفكار ضالة •

والمعطلات الدراسية في الأزهر خلال شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ، الى جانب الاحتفال بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم - وحفيدة الحسين ووفى الله سيدي أحمد البندوي ، كما كانت هناك اجازة وقاء النيل ، وصيف المحمل في الحج الى مكة •

كما قرر القانون نفسه - ١٨٩٦ - اجراء امتحان بعد ثمانى سنوات من الدراسة ، ودراسة ثمانية مقررات • وتكون لجنة الامتحان من شيخ الأزهر وثلاثة من مشايخ العلماء ، ويمتحن الطالب الناجح شهادة تدعى - الشهادة التأهيلية (*) ، تعلمه لامامة مسجد والقاء خطبة الجمعة ، لما الشهادة العليا - وتدعى - العالمية - فقد بقيت على ما كانت عليه دون تغيير وتمنح لصاحبها بعد دراسة اثني عشر عاما في الأزهر ، وهي نفس السنوات التي يدرس فيها الطالب لدرجة الدكتوراه في النظام الحديث •

وقرر القانون أيضا قواعد وجزاءات صارمة تضمنتها لائحته لتنظيم العلاقة بينه وبين المعاهد التابعة •

وخلال سنة ١٨٩٧ ، قرر ديوان الأوقاف ، وهو الهيئة الحكومية المسؤولة انشاء المكتبة العامة للأزهر ، واتخذ مقرا لها ذلك المبنى الرائع الذي اقامه طيبرس واقبضا على الجانبين الأيمن والأيسر لبوابة الأزهر - المسجد - وتدل ميزانية ديوان الأوقاف حينذاك على ما كان من اصلاحات حققت ما تناولته قوانين ١٨٩٥ و ١٨٩٦ ، وانشاء المكتبة المركزية للأزهر • وهو ما يشير الى الجهد الكبير أيضا لجذب طلاب الأزهر الى العلوم الحديثة بتقرير المنح والهبات للطلاب الفائزين في الامتحانات ، ففي عام ١٨٩٦ كانت ميزانية ديوان الأوقاف للمعاهد التابعة في طنطا ودسوق ودمياط والاسكندرية على الوجه التالي :

٥٥١٦ جنيهها لمعاهد طنطا ودسوق ودمياط والاسكندرية •

٢٠٠٠ لتعزير المرتبات •

قرارات لديوان الأوقاف لتعزير قرارات قانون ١٨٩٦ على الوجه التالي :

(*) يمنح الطالب الناجح شهادة تدعى الشهادة الاملية •

- ٦٠٠ زيادة في مرتبات ٢٤ مدرسا .
- ٦٠٠ جوائز وهبات للطلاب .
- ٦٠٠ مرتبات للأعمال الإضافية في الاشراف .
- ٣٦٠ مكافآت لتشجيع الطلاب على دراسة الرياضيات والتاريخ .
- ١٥٠ نفقات ادارية عامة .
- ٤٦٢ مكتبة الأزهر .

بداية القرن العشرين :

وكان لما تم من اصلاحات جنواها فيما أصبح عليه الأزهر في بداية القرن العشرين .

ففي سنة ١٩٠٢ كان هناك تسعة وخمسون مدرسا لا يحملون مؤهلا و ٢٥١ آخرون اجتازوا الامتحان وحصلوا على مؤهل ، منهم ٧٤ حصلوا على المؤهل من المستوى الأول ، وهو ما يجيز لهم تدريس المواد الصعبة بالطريقة التي يجيدونها ، ومائة وثلاثة حصلوا على المؤهل من المستوى الثالث ، وهو ما يجيز لهم تدريس مواد أقل مستوى ، كما كان هناك عشرون مدرسا أجيز لهم تدريس مواد حديثة كالجغرافيا ، والحساب والانشاء ، منهم مائة من اتباع المذهب الشافعي وسبعة وسبعون من المالكية ، واثنان وسبعون من الحنفية ، واثنان من الحنبلي .

وعندما زادت الميزانية الى اربعة عشر ألفا من الجنيها ، زادت مرتبات الشيوخ عما كانت من قبل ، فأصبح مرتب شيخ الأزهر واحدا وسبعين جنيها شهريا بالاضضافة الى ايراد اربعمائة فدان من الأراضي وخمسة وسبعين رغيفا جراية يومية توزع على مريديه ، كما منح الخديو مائة من الشيوخ مرتبا شهريا يتراوح ما بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، الى جانب هدية لكل منهم عبادة مزدانة بلونها الأرجواني علامة على التشريف .

وبقي العديد من المشكلات في انتظار الحل ، ومما يرويه الدكتور طه حسين أنه كان هناك في قرية ثلاثة من الشيوخ ، يمتلك أحدهما حمارا يعمل عليه ، وكان الثاني أميا ، وأما الثالث فكان مقرئا لا يعي ما يقرأ عنهما يلقيه على الفلاحين ، فاذا شيوخ القرية على هذا المستوى من الجهل فان علينا أن نتصور ما يمكن أن يكون عليه أبناء الفلاحين من اهل الريف .

وثمة كتاب كتبه سنة ١٩٠٤ الشيخ الأحمدي الظواهري بعنوان (العلم والعلماء) دون فيه - وان كان فيه شيء من المبالغة - حقائق

مثرة عما كان حينذاك ، يقول فيه ان الولد الفقير النازح من قريته الى
الازهر لفقره ولأنه لا يجد ما يقينه فيتزج الى الأزهر ويعيش داخل المسجد
فريسة للفقر ، والهوام القتالة ، ولما كان الشيخ لا يتابع
دراساته ، وما عليه الا أن يلتحق بحلقة تفوق استعداده ومستواه ليكون
قريباً ممن فيها من أهل قريته ، فلا يسي ما يقال شيئا ، ويدرك أخيراً
أنه يعيش في تسيب لا يقيه ، فلا يفيد مما يلقى الشيخ شيئاً ويصبح
أسير الكسل والتراخي ، وليس في قدرته قراءة الصحف ، ولا أن يصادق
أحدًا خارج الأزهر ، ويمضي به الوقت فلا يرى من معالم القاهرة ولا يدرك
شيئاً عن العالم الخارجي ، ويصبح في حالة يرثى لها . فلا يدري ما أمامه
أو ما وراءه وما عن يمينه أو شماله ، أو فوقه أو تحته .

وعندما يتحدث الشيخ الظواهري في هذا الكتاب الذي سطره في
يوأكر حياته ، عن المسجد ، يقول : (لا أستطيع أن أتصور أن يوجد
ثمة مكان في العالم في حالة تدعو الى الاحباط والمرارة بل والتشوش
كهذا التشوش القائم في اعظم معاهد الدنيا اجللاً واكباراً ، الأزهر العظيم) .
ويمضي قائلاً ان العلماء على قدر كبير من الحصافة ، ولكن تموزهم روح
الايمان . وان كانت هناك قلة ضئيلة تقبل على معرفة كل ما هو جديد ،
وتؤمن بما للناس من قدرة على استيعاب الفضائل ومعنى الخلق الرفيع ،
أما الكتلة فلا تلقى بالا الا لما كان تراث الماضي وتقليد الأقدمين ، وقد
أصابهم الركود ، وقلة الاكتراث بحاجة المجتمع والمطالب الاجتماعية .

وكان على الطالب أن يقضى اثنتى عشرة سنة ، للتمكن من أداء
الامتحان بينما نراه مع التوجيه والرعاية العلمية والنظام يكفى بسنوات ثمان
لتحقيق المستوى المنشود لأداء الامتحان ، وان كان يضم أكثر من سبعة
آلاف طالب من صفار السن وكبارهم فان قلة ضئيلة هي التي تجتاز
الامتحان في تلك السنوات ، وكان أكثرهم يهجر الدراسة سعيًا وراء
القوت ، ومنهم من يلوذ به حتى يوافيه الأجل .

هذا وان كان في هذا الوصف شيء من المبالاة ، فان من اليسير
ادراك ما كان سنة ١٨٩٥ حين قام الطلاب السوريون بأعمال عنف ، وبعد
سنوات من ذلك التاريخ كان موقف الطلاب من بعض الزوار الغرباء ،
ما جعل لورد كرومر على منع الغرباء من زيارة المسجد في المرة التالية ،
مما يفسر ما كان من ممارك بين المحافظين الذين وقفوا ضد أي تغيير في
المنهج وطرق الدراسة ، والمجددين الذين يطالبون بتدريس العلوم الحديثة
واللغات الأجنبية وتطبيق طرق التعليم الحديثة .

وحين ولي الشيخ سليم البشري مشيخة الأزهر سنة ١٨٩٩ حتى
سنة ١٩٠٢ ، دفع بسجلة التقدم الى الإمام ، فحمل عليه الجياملون من

وقد غمر البناء الجديد الطلاب بالأمل في مستقبل كان خير عوض
لهم عن الحنين الى الماضى القديم : بصراته ومآثره .

وفي السادس والعشرين من يناير ١٩٢٥ ، كان حريق القاهرة
المؤسى ، حين انثال الدماء والفوضى الى الشوارع مخربين وناهيين ،
فاحرقوا فندق شبرد ، والنادى الانجليزى - نرف كلوب - والعديد من
دور السينما والملاهي والمطاعم .

وحين اقبل النحاس باشا كان ذلك ايذانا بالخلل وعدم الاستقرار
الميليشى . ولم يعد ثمة أمل فى الاستقرار .

واخيرا وفي الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٥٢ ، قام جماعة
من الضباط بالاستيلاء على الحكم فى انقلاب سلمى .

وبدأت حقبة جديدة فى تاريخ مصر وفى تاريخ الأزهر الحافل .

فصل السابع ، الأزهر بعد ألف عام

الثورة :

في السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، خلع الملك فاروق عن العرش ، وخلفه ابنه الطفل علي العرش ، وفي الثامن عشر من يونيو ١٩٥٣ ، أعلن ضباط الثورة نهاية الملكية وقيام حكم جمهوري .

ومع قيام حكومة مركزية برئاسة المقدم جمال عبد الناصر ، لم يعد الأزهر حشية للتنافس بين الملك والانجليز والوفد . وتخصت حياة الطلاب لرقابة صارمة ، وانفسح المجال أمام الطلاب لحياتهم الدواسية دون التهييج السياسي ، ولقي شيوخ الأزهر ما يحفزهم على النشاط العلمي للاسهام في بناء مصر ، ورعاية النشاط العلمي ، وفتح أبواب الأزهر للوافدين من الطلاب الآسيويين والأفريقيين ، لتزويدهم بالمعرفة الإسلامية في عالم جديد .

وسخر شيوخ الأزهر كل ما لديهم من جهد لبناء الجمهورية وتعزيز كيانها ، وعندما وقع الهجوم على قناة السويس ، نزع الطلاب الى التدريب العسكري .

وبعد ذلك بسنتين حين دعا شيخ الأزهر الى رعاية ما يقتضيه صوم رمضان ، لم ينس أن يشير الى ما يقتضيه الصيام فدعا الى تقديم كل ما يملكون من معونة الى جمهورية مصر العربية . وفي مارس ١٩٥٩ : حين هدد الشيوعيون في العراق الوحدة العربية التي تتبناها مصر ، أعلن شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الجديد الحرب المقدسة على الشيوعيين الذين يهددون الاسلام ويحاولون القضاء عليه والعودة به الى الجاهلية الأقلية وبقي الأزهر بعد عشرة قرون من الأحداث التي تماورته المنارة السامقة في عالم الاسلام منذ قام بناؤه . ففي عام ١٩٥٨ ، كان الرئيس عبد الناصر يؤمه خلال شهر رمضان كما كان الفاطميون من قبل حين انشائه ، وكانما الزمن وأحداثه لم تتل منه شيئاً . ففي نهاية شهر يناير ١٩٥٨ حين أعد لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، قام رئيساً مصر وصوريا بمراسم الصلاة في الأزهر ، وفي الرابع والعشرين من أكتوبر

١٩٥٨ قام وزير الأوقاف في الأزهر واحتفى فيه باليوم العالمي لقيام الأمم المتحدة ، وفي مارس ١٩٥٩ قام الأمير محمد البدر ولي عهد اليمن بأداء صلاة الجمعة في الأزهر ، ودعا بالرحمة لضحايا العدوان الشيوعي في العراق .

ومع ما كان من بناء الأزهر سنة ٣٦١ الهجرية ، فإنه لم يبدأ دوره التعليمي بصورة منتظمة الا في سنة ٣٧٨ وفقا للتقويم القمري (الهجرى) ولما كان التقويم الاسلامى - (الهجرى) لسنة ١٣٧٨ يوافق العام الدراسي لسنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - وقد مر على الأزهر الف سنة كان خلالها منارة العلم ، فإن علينا ان نلقى بلمحة على دوره وما أصبح عليه خلال تلك السنوات القاربة من تاريخه ، حتى آل أمره الى جمهورية مصر العربية ، وقد بدأ رسالته حين نقل الخليفة العزيز الفاطمى حق الإقامة والمعيشة لخمس وثلاثين طالبا في انقطاعهم للدراسة بالمسجد .

وقد أصبح منهج الدراسة في الأزهر على عهد جمهورية مصر العربية ، متوائما مع التعليم الدينى ، وفقا للمنهج العلمى الحديث الذى تقوم عليه الدراسة فى وزارة التربية والتعليم . مما يقتضى منا أن نعرض لنظام التعليم فى الأزهر وفقا للنظام الجديد .

الجامعة :

أو الجامعة الأزهرية أو جامعة الأزهر ، وتقوم على ثلاث كليات :

١ - كلية اللغة العربية للدراسة اللغة والأدب العربى .

٢ - كلية الشريعة الاسلامية ، وتزود الطالب بدراسة كاملة للتشريع الاسلامى .

٣ - كلية أصول الدين

دراسات اضافية :

١ - معهد البحوث الاسلامية ، وقد أعد لاستقبال الطلاب الأجانب ، وفقا لمنهج دراسى يؤهلهم للدراسات العربية والاسلامية . ويبدأ بالدراسة الابتدائية ثم الثانوية وأخيرا الدراسة العليا وكل مرحلة منها أربع سنوات .

٢ - معهد التوجيه ، وقد أنشئ خلال العام الدراسى ١٩٥٨-١٩٥٩ . لاعداد الرجال للخدمات الخارجية ، كما يعد الطلاب الأجانب للالتحاق بالأزهر ، لدراسة مقرره .

٣ - معهد القراءات : ومنه الدراسة أربع سنوات لتعليم الطلاب

قراءة القرآن وتجويده ، وكانوا يتلقون دراستهم ببني الأزهر اذ لم يكن له مقر خاص .

المعاهد الدينية :

وكانت على الصورة التالية :

١ - المعاهد النظامية

وكان منها اثنان وعشرون معهدا تتبع الأزهر مباشرة وتخضع للوائح ، اقيمت لها مبان على أحدث طراز وقد زودت بكل ما يحتاجه الطلاب للاقامة والاعاشة ، وتضم جميعا المرحلتين الاعدادية والثانوية فيما عدا اربعة منها قاصرة على المرحلة الابتدائية فقط .

وكان معهد طنطا وحده يضم الفى طالب ، بينما يضم معهد القاهرة ومعهد الزقازيق ، ومعهد المنصورة ما يزيد على ألف طالب .

٢ - المعاهد الحرة :

وعدها سبعة وعشرون معهدا تنتشر فى أنحاء القطر وتتبع الأزهر بدورها ، وتضم المرحلتين الابتدائية والثانوية ماعدا اربعة منها قاصرة على المرحلة الابتدائية .

مستوى الادارة :

وشيخ الأزهر هو الرئيس الأعلى لهذه المعاهد جميعا وله الاشراف التام عليها ، ادارة وتنفيذا ومتابعة للدراسة ، وكافة ألوان الأنشطة الأخرى .

وهو صاحب الرأى والمشورة لدى السلطات العليا للدولة فى كل ما يتصل بالشئون الاسلامية .

وقد اختير الشيخ محمود شلتوت لشغل هذا المنصب سنة ١٩٧٨ . وكان لكل كلية عميدها ، ولكل عميد وكيل ، وقد زودت بواجباتها من السكرتارية والموظفين الإداريين والماليين ، ولكل كلية سجلاتها الخاصة بقيد الطلاب ، وادارة الامتحانات وقيد الناجحين والراسبين ، ولها مكتبتها الخاصة ، ومطبعتها ، وسجل خاص لقيد الطلاب الاجانب . ويشرف على ادارة المعاهد مجلس الأزهر الأعلى ، وله الأمر والنهى فى كل ما يتصل بها من أمور .

ولكل كلية مجلس للادارة . وفى سنة ١٩٥٨ تكونت ثلاث لجان تضطلع بالمستولية فى الأمور التالية :

المسلمين الى القاهرة فى طريقهم الى الأزهر ، ومنرى الكثيرين من خريجه
فى الصين من بعد .

ومما قيل ، يبدو واضحا أن خريجي الأزهر الأوائل فى الصين
يتسلمون مراتب القيادة ، بينما بقى الآخرون فى تواضعهم يحيون لغة
العرب وثقافة الاسلام والايمان العميق بتماليه .

ومما يثير الدهشة والاعجاب أن نرى خريجي الأزهر قد حملوا مشعل
الثقافة الاسلامية وتماليم الدين الحنيف ، وأن الأزهر نفسه كان المنارة
التي تشع النور فى العالم من سيبيريا الى نيجيريا ومن مراكش الى الصين
قبل أن يسمع الناس بأمريكا أو كشف عنها بعد ، كما كانت البقاع
الشمالية من أوروبا تعيش فى تيه الضلالة والجهل ، برايرة بدائين .

الفصل الثامن : تقنية المستقبل

الأزهر

الدينية مما يتيح لهم القدرة على التجديد ومراجعة طرق التدريس ، وأن يبدأ ذلك بالمرحلتين الابتدائية والثانوية . وهو ما أشار اليه كاتب إسلامي بقوله ان الحاجة ليست في إصدار القوانين واللوائح بقدر ما هي في اعداد الرجال القادرين على حمل رسالة الأزهر ليكون له اثره الفعال في عالم الاسلام .

وتقديرا لهذا الاتجاه قام شيخ الأزهر بتعيين الدكتور محمد المعداوى لإدارة المعاهد الدينية والدكتور محمد البهى للإشراف على شئون الوافدين والطلاب الأجانب وعن المكتبة والمجلة ، وقد حصل كلاهما على درجة الدكتوراه من ألمانيا ، وقد عين الشيخ محمد الفحام بعد حصوله على الدكتوراه من باريس عميدا لكلية اللغة العربية ، بينما اختير الشيخ محمد حب الله وقد حصل على الدكتوراه من إنجلترا عميدا لكلية الشريعة ويعمل الآن في واشنطن بأمريكا .

ومما يواجه المسئولين من الناحية الواقعية مشكلة القبول في الكليات الثلاث ، وكـم طالبا يمكن قبولهم ؟

وقد غدت الجامعات الحكومية مكتظة بطلابها مما دعا الى التفكير في انشاء معهد مصري عال لإعداد النخبة المختارة من صفوة الدارسين . ومع تزايد عدد السكان في مصر يتزايد عدد المتقدمين للالتحاق بالكليات ، ويطنى حينذاك الكم على الكيف .

ومن المعروف أنه كلما تزايد عدد الطلاب في الفصول فقد الأستاذ الصلة بتلاميذه ولم يعد ثمة تأثير ثقافى أو أخلاقى للأساتذة على طلابهم . .

ولنا ان نتساءل الى أى مدى يتسنى للأزهر أن يواجه تلك المشكلة في المستقبل ؟

الاسلام والشبيبة الجديدة :

وثمة قضية على الأزهر أن يواجهها ، وإن كانت قضية عامة لا يختص بها بلد واحد أو محيط اجتماعى معين ، وهي قدرة الاسلام على التوافق مع الجيل الناشئ في عصر الذرة وقد غمت عليه تفسيرات ما يور

وحين عصفت المجاعات والزلازل والصراعات بين الماليك فيما يمكن
أن يقال عنها - حروب أهلية - كان الأزهر ملاذ الخائفين والمذغورين ومن
أصابعهم الأذى .

وحين عصفت الجهل وزلزلت الكوارث عقول المصريين فأصابتهم
بالبوار العقل ، ولفحت الأزهر حمى التصوف والاغراق في التدين .

وعندما اجتاحت الاحتلال الأوربي مصر كان الأزهر ملاذ النداء الوطنى
ونزعة المقاومة . ومع ما أصابه من آثار المقاومة والركود العقل = بقى
تاريخه حافلا بالانجازات .

وفي هذا العصر ، عصر الشك والريبة وقد غام الأفق بكل ما ينوء
به الإدراك واليقين ، ندعو الله أن يأخذ بيد الأزهر ليقود شباب الاسلام
الى الايمان العميق بالله ، وان يهديهم سواء السبيل فى تلك للتأهة التى
تصنف بروح العصر .

شيوخ الأزهر

كان القائم على إدارة الأزهر في البداية يحمل لقب (المشرف) ومن بعد - الناظر - وخلال القرن السابع عشر أنشئ منصب شيخ الأزهر .

وفيما يلي قائمة بأسمائهم ومنهجهم والمدة التي شغلوا خلالها للمنصب :

الاسم	المنصب	تاريخ ومدة الشياخة
١ - محمد عبد الله القرشي	مالكي	؟ - ١٦٩٠
٢ - محمد النشترتي	»	١٦٩٠ - ١٧٠٨
٣ - عبد الباقي القليني	»	١٧٠٨ - ؟
٤ - محمد شمس الدين	»	؟ - ١٧٢١
٥ - إبراهيم بن موسى الفيومي	»	١٧٢١ - ١٧٢٥
٦ - عبد الله الشبراوي	شافعي	١٧٢٥ - ١٧٥٨
٧ - محمد بن سالم الحفناوي أو الحفني	»	١٧٥٨ - ١٧٦٧
٨ - عبد الرؤوف بن محمد السجيني	»	١٧٦٧ - ١٧٦٨
٩ - أحمد بن عبد المنعم المعنهورى	»	١٧٦٨ - ١٧٧٨
١٠ - أحمد بن موسى العروسي	»	١٧٧٨ - ١٧٩٣
١١ - عبد الله الشرقاوي	»	١٧٩٣ - ١٨١٢
١٢ - محمد الشنواني	»	١٨١٢ - ١٨١٨
١٣ - محمد بن محمد العروسي	»	١٨١٨ - ١٨٢٩
١٤ - أحمد بن علي الدهوجي	»	١٨٢٩ - ١٨٣٠
١٥ - حسن بن محمد المطار	»	١٨٣٠ - ١٨٣٤

- ١٦ - حسن القيسوني ١٨٣٤ - ١٨٣٨
- ١٧ - أحمد الصايم الصفتي ١٨٤٧ - ١٨٣٨
- ١٨ - إبراهيم الباجوري ١٨٤٧ - ١٨٦٠
- ١٩ - مجلس حل محل المشيخة ١٨٦٠ - ١٨٦٤
- ٢٠ - مصطفى العروسي شافعي ١٨٦٤ - ١٨٧٠
- ٢١ - محمد العباسي المصري حنفي ١٨٧٠ - ١٨٨٦
- ٢٢ - شمس الدين محمد الامباي شافعي ١٨٨٦ - ١٨٩٥
- وقد تولى المشيخة أيضا خلال سنة ١٨٨٢
- ٢٣ - حسونة النواوي حنفي ١٨٩٥ - ١٨٩٩
- ٢٤ - عبد الرحمن القطب النواوي ١٨٩٩
- ٢٥ - سليم البشرى مالكي ١٨٩٩ - ١٩٠٢
- ٢٦ - علي محمد الببلاوي ١٩٠٢ - ١٩٠٥
- ٢٧ - عبد الرحمن الشرييني شافعي ١٩٠٥ - ١٩٠٦
- ٢٨ - حسونة النواوي - مرة ثانية - حنفي ١٩٠٦ - ١٩٠٩
- ٢٩ - سليم البشرى - مرة ثانية - ١٩٠٩ - ١٩١٧
- ٣٠ - محمد أبو الفضل الجيزاوي مالكي ١٩١٧ - ١٩٢٧
- ٣١ - محمد مصطفى المراغي حنفي ١٩٢٧ - ١٩٢٩
- ٣٢ - محمد الأحمدى الطواغرى شافعي ١٩٢٩ - ١٩٣٥
- ٣٣ - محمد مصطفى المراغي - مرة ثانية - ١٩٣٥ - ١٩٤٥
- ٣٤ - مصطفى عبد الرازق حنفي ١٩٤٥ - ١٩٤٧
- ٣٥ - محمد مأمون الشناوى ١٩٤٨ - ١٩٥٠
- ٣٦ - عبد المجيد سليم ١٩٥٠ - ١٩٥١
- ٣٧ - إبراهيم حمروش ١٩٥١ - ١٩٥٢
- ٣٨ - عبد المجيد سليم - مرة ثانية - ١٩٥٢
- ٣٩ - محمد الخضر حسين مالكي ١٩٥٢ - ١٩٥٤
- ٤٠ - عبد الرحمن تاج حنفي ١٩٥٤ - ١٩٥٨
- ٤١ - محمد شلتوت ١٩٥٨ - ١٩٦٤

حته ، أن يقدم للقارئ غير العربي ، والذي لا يعرف اللغة العربية ، ولا يعلم شيئاً عن أشهر معهد في العالم الإسلامي وأعظم محفل للثقافة الإسلامية أعضاء العالم الإسلامي بنور المعرفة • بينما كانت ثقافة أوروبا اللاتينية في مرحلة الانحطاط ، شرحاً للثقافة الإسلامية وأثر الأثر فيها ، ويختم تقديمه بهذه العبارة الرقيقة :

(لقد ما أخفت خلال تلك السنوات التي عشتها في القاهرة بمحافلها العلمية ، وحيويتها العارمة ، كما أخفت بالود الذي غمرني به أولئك الأساتذة الأجل من إبنائها لرجل ينشد منهم المون والمساعدة) •

وإذا كان في هذه الكلمة الأخيرة تكرار ، فإن وفائي للرجل الذي أحب بلدى وأحب أزهراً العظيم ، لا يحول بيني وبين التكرار •

ويسعدني أن أهدى الى روحه هذه الترجمة ، كما يسعدني أن أجمل ما كان من بعد من تاريخه الحافل ، على القمة منه شيخان أحمل لهما كل الود والتقدير والاكبار :

فضيلة الامام الاكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق • وشيخ الافتاء الكبير ، وأرى فيه خليفة للامام الاكبر الشيخ محمد عبد : الدكتور محمد سيد طنطاوى ..



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم من الأزهر الشريف	٩
تقديم المؤلف	١٣
الفصل الأول :	
الأزهر والخلفاء القواطم	١٥
الفصل الثاني :	
صلاح الدين والدولة الأيوبية	٤١
الفصل الثالث :	
سلاطين المالك	٥٩
الفصل الرابع :	
الأزهر في العصر العثماني	٧٩
الفصل الخامس :	
بداية التاريخ الحديث	١٠٥
الفصل السادس :	
التجديد والإصلاح	١٢٥
الفصل السابع :	
الأزهر بعد ألف عام	١٥٥
الفصل الثامن :	
قضية المستقبل	١٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥٠٩ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977-01-5235-8

■ د. حسين فوزى النجار

الأزهر الشريف... المنارة الإسلامية التي
تعمر بها أرض الكنانة، فاستقطب اهتمام
الجميع، بما فيهم الأجانب، فهو الأبعد أثراً
ديناً وثقافة بدرجة كبرى؛ استجقت ذلك
الاهتمام، ومن هؤلاء الذين عكفوا على دراسة
تاريخه «بيارد دودج» والذي عمل بالجامعة
الأمريكية، وأخذ دراسته بكل جدية، سواء من
الوثائق أو المكتبات، واستفاد من عشرات
البحوث والدراسات.

وهذا العمل الذى قام بترجمته الدكتور
حسين فوزى النجار، يؤكد أهمية التواصل
بين الثقافات وضرورة الاطلاع على نظرة
الآخرين، خاصة إذا كان ذلك متصلاً بالأزهر
الشريف، ومن ثم فهي ترجمة بليغة لمؤلف
مفيد، يحوى بين دفتيه تقديمًا وممانية
فصول، تناولت الأزهر فى مختلف العصور

وجهوده التى كانت ومازالت ثرية فى
الإسلام، وحسبما أشار المؤلف فإن
من هذا الكتاب هى تزويد القارئ بما لا
عن أعظم الجامعات الإسلامية شهرة.

مكتبة الأسرة



بسرور مزى جنبه وربع
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina



0412376